رواية من اليابان

يوكيو ميشيما

البحّار الذي لفظه البحر













ترجمة عايدة مطرجي إدريس

دار الآداب



البحار الذي
لفظه البحر

يوكيو ميشيما

البحار الذي لفظه البحر

رواية

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٨

عن المؤلف

وُلد يوكيو ميشيما (وهو اسم مستعار لكيميتاك هيراوكا) عام ١٩٢٥ في طوكيو. وقد شملت أعماله الأدبية المتميِّزة بتنوعها وغزارتها على حد سواء: الأبحاث والمسرح والروايات والقصص القصيرة وأدب الرحلات. وكتب روايات شعبية، كانت تظهر في الصحف ذات الطبعات الضخمة بقدر ما كتب أعمالاً أدبية مرهفة، وقد مثّل وأخرج فيلماً صوَّر فيه موته.

ولقد حصل على الجوائز الأدبية الثلاث الكبرى لليابان. وكان قد كتب عمله الكبير، أربع روايات متتابعة تحمل عنواناً عامّاً «بحر الخصوبة»، وفي تشرين الثاني عام ١٩٧٠، انتحر بطريقة مشهدية خلال «سيبوكو» عند نهاية محاولة سياسية أخيرة يائسة صدمت مخيلة العالم كله.

القسم الأول

الصيف

الفصل الأول

قالت أمّ نوبورو وهي تقفل باب غرفة ابنها من الخارج:

« مساء الخير، نَمْ جيّداً ». ما عساها ستصنع لو اندلع حريق ما؟ بالطبع كانت تنوي أن تعيد فتح الباب قبل كل شيء. ولكن ماذا تراها ستفعل إذا انتفخ خشب الباب بفعل الحرارة أو سَدَّ الدّهان ثقب القفل؟ هربٌ من النافذة؟ ولكنه كان يوجد، تحت النافذة، طريق مليء بالحصى. وكان الطابق الأول لهذا البيت مرتفعاً ارتفاعاً عجيباً، على علوٍّ بلا أمل.

كلّ ذلك كان بسبب غلطته هو. وما كان ذلك ليحصل لو لم يكن قد استسلم لإيحاء القائد بأنْ يفرَّ من البيت هذا المساء. وكانوا قد حاولوا عبثاً حشره بالأسئلة، ولكنه لم يكشف اسم القائد.

كانوا يسكنون بيتاً كان الوالد المرحوم قد بناه عند قمة رابية « يادو »، في حيّ « يامات » في « يوكوهاما ». وكان قد صودر أثناء الاحتلال ثم جُدِّد. كانت مغاسل قد أُضيفت الى جميع غرف الطابق الأول. فأن يكون المرء محتجزاً في المساء، لم يكن ذلك يشكّل إزعاجاً كبيراً، ولكن ذلك كان، بالنسبة لصبيّ في الثالثة عشرة من عمره، أمراً مذلاًّ.

كان نوبورو قد تُرِك وحده ذات صباح لحراسة البيت، وفيما كان يحاول تبديد سأمه، أخذ ينقّب بعناية في غرفته.

كان صوان كبير قد وضع في الحائط الذي يفصله عن غرفة

نوم أمّه. وقد أخذ يسحب منه جميع الأدراج، وفيما كان يبعثر على الأرض الثياب التي كان يحتويها، لاحظ شعاعاً من الضوء يتسرّب إلى إحدى حُجيرات الصوان التي سُحبت منها أدراجها. وقرّب رأسه في المساحة الفارغة واكتشف مصدر الشعاع. كان الضوء القويّ لشمس صباحية من أوائـل الصيف يعكسه البحر في غرفة نوم أمه الغائبة ،وانحنى فأدخل جسده في الصوان؛ وقد كان بإمكان أي شخص بالغ أن يدخل فيه بسهولة حتى بطنه إن هو تمدَّد. وأحسّ نوبورو، وهو يلقي نظرة على غرفة أمه من خلال الثقب، أن ثمة شيئاً جديداً نضيراً.

كـان سريران مزدوجان من النحاس اللمّاع قد وضعا على طول الحائط من جهة الشمال، كما كانا قبل موت الأب الذي أسعده أن يحضرهما من «نـوفيـل اورليـان» في أميركـا. وكـان أحدهما قد غطي بغطاء أبيض كان يبرز عليه حرف k بشكل عريض. (وكان كورودا هو اسم عائلة نوبورو). وعلى السرير كانت قد ألقيت قبعة من القشّ الأزرق الباهت. وعلى طاولة رأس السرير، كان ثمة مروحة كهربائية زرقاء. وعلى الجانب الأيمن، على حافة النافذة وضعت طاولة للزينة تعلوها مرآة بيضويّة الشكل ذات وجوه ثلاثة. وكانت المرآة قد تركت مفتوحة بإهمال. أما الجوانب المشدوفة فكانت تتلألأ من خلال الثقب كأنها إبرٌ من الزجاج. وأمام المرآة كانت ترتفع غابة من القوارير: ماء كولونيا، بخّاخات عطور، ماء الخزامى، قنينة من البلّور البوهيمي كانت أضلاعها تتلألأ، زوج قفازات من التخريم الأسمر مدعوك وملقى كرزمة من الأوراق الميتة.

وأمام الشباك صُفّت أريكة وكرسيّان، ومصباح وطاولة واطئة

دقيقة الصنع، وعلى الأريكة وضع إطار تطريز ذو خيوط مغروزة في الحرير، كأنه بداية عمل. وكانت مثل هذه الأشغال قد بطل طرازها منذ زمن بعيد، ولكن أمه كانت تحبّ جميع هذه الأشكال من شغل النساء. ومن مكمنه، لم يكن باستطاعته أن يرى بوضوح الرسم الذي بدأت به، ولكن ذلك يمكن أن يكون جناحي طير متألقين أشبه ببغاء على خلفيّة رمادية لؤلؤيّة. وكان زوج من الجوارب ملقى الى جانب المطرّزة، وكان «النيلون» الشفاف المتروك بفوضى على الدمقس المزيّف للأريكة يضفي على الغرفة كلها جواً من الإثارة. وبالتأكيد فإن أمه، في لحظة خروجها، كانت قد اكتشفت أن جورباً قد نَسَل، وكانت قد بدّلته وخرجت على عجل.

ومن النافذة، لم يكن يُرى سوى سماء باهرة، وقطع من الغيوم الصلبة اللمّاعة شبيهة بمينا كان البحر يعكسه.

لم يكن نوبورو يستطيع ان يصدق أن ما كان يراه كان غرفة أمه. كان بالإمكان أن تكون غرفة امرأة غريبة. ولكنه لم يكن ليشك بأن امرأة كانت تعيش هنا: كان جوٌّ نسائي يتكشّف في جميع الزوايا. وكان عطر خفيف يطفو في الهواء.

وفجأة، خطرت بباله فكرة غريبة: هذا الثقب الذي ينظر من خلاله هل كان ثقباً طبيعياً؟ ذاك أنه ، بعد الحرب، كانت عائلات عديدة من جيش الاحتلال قد سكنت معاً البيت بعض الوقت، وإذن...

وخطرت بباله فجأة فكرة أن جسماً آخر غير جسمه، أطول منه، جسماً ذا زغب أشقر، كان قد اندسّ بالقوة في المساحة الفارغة التي يشتمّ منها الغبار، ورائحة حامزة لا تُطاق. وركض،

بعد أن بذل جهده وهو ينسحب القهقرى خارج الصوان إلى الغرفة المجاورة. لم يكن نوبـورو يستطيـع ان ينسى قـط الشعـور الغـريـب الذي انتابه عندما دخل الغرفة كالإعصار.. عبثاً نظر، فلم يكن يجد فيها شيئاً من الغرفة التي كان قد رآها منذ لحظات من الثقب. ومع ذلك فقد كانت هي غرفة أمه، المألوفة الى حد بعيد. هنا، كانت أمه، في المساء، تضع تطريزها جانباً، وتساعده في فروضه، بينما كان هو يتذمّر ويدمدم وهو يخنق تثاؤباته، أو كانت توبّخه لأن ربطة عنقه كانت دائماً محروفة أو أيضاً عندما تقول له: «متى تقلع عن المجيء إلى غرفتي بحجة أنك تريد أن تنظر إلى المراكب؟ إنك لست بعد طفلاً!» ثم تأخذ في تدقيق دفاتر المحاسبة التي كانت قد جلبتها من المتجـر وهي تسند ذقنها على يدها.

وبحث عن مكان الثقب. ولم يكن من السهل وجوده. كان ثقباً صغيـراً مخفياً بنقوش محفـورة في الخشـب في مكـان عنـد الطـرف الأعلى حيث كانت دائرة حلزونية من النقش تخفيه.

رجع نوبورو بسرعة الى غرفته. فجمع الثياب المبعثرة ودسّها في الأدراج. وعندما أعاد كل شيء إلى مكانه وأغلق الصوان عاهد نفسه على أن لا يقوم بأيّ تصرّف يمكن ان يثير انتباه الكبار إلى الصوان. وبعد فترة قصيرة من اكتشافه هذا، أخذ نوبورو يراقب أمّه في الليل، وخاصة عندما كانت توبّخه. فما تكاد تغلق بابه حتى يسحب أدراج الصوان بصمت ويروح يترصّدهـا بـانـدهـاش لا يرتوي أبداً وهي تتهيّأ لتستلقي في السرير. وفي الأمسيات التي كانت فيها لطيفة، فإنه لم يكن ينظر اليها قط.

واكتشف أنه كان من عادتها، بالرغم من أن الليالي لم تكن بعدُ حارة بشكل مزعج، أن تجلس عارية تماماً بعض اللحظات قبل

أن تندسّ في الفراش. وكان يحسّ بقلق حقيقيّ عندما كان هذا الجسد العاري يختفي في زاوية من الغرفة لم يكن مرئياً له.

لم تكن إلا في الثالثة والثلاثين. وكان جسدها الرهيف، المتحفظ برشاقته، بالرغم من حياة الترف التي تعيشها، وبسبب تردّدها على نادي كرة المضرب، كان جسدها هذا رائعاً. عادة كانت تستلقي في سريرها حالما تنتهي من تدليك نفسها بماء الكولونيا ولكنها أحياناً كانت تجلس جانبياً أمام منضدة الزينة وتنظر الى قامتها في المرآة دون أن تقوم بحركات، وعيناها تلمعان كما لو كانتا محمومتين. وكانت أصابعها مشبّعة بعطر كان يبلغ منخري نوبورو، من دون أن تحرّكها. في هذه اللحظات، كان أحمر الأظافر المصبوغة يشكل حزمة كانت تجعل نوبورو يرتعد ظانّاً أنه كان دماً.

لم يكن قد سبق له قط أن تأمل جسد امرأة على مثل هذا القرب. كان كتفا أمه تنسلاّن بلطف الى اليمين والى الشمال كخطّ الساحل. وكان عنقها وذراعاها ذات لون برونزي خفيف ولكن عند الصدر، كانت تبتدىء منطقة من لحم ريّان أبيض وحار كما لو أنها كانت قد سُخِّنت بنار داخلية.. وكان نهداها يرتفعان باعتزاز من الصدر الناصع البياض، وعندما كانت تضغطها، بيديها، كانت حلمتاها الورديّتان تنتصبان. ورأى نوبورو البطن الذي كان يرتفع بخفاء مع التنفّس كما تنبض التفزّرات.. وكان قد اطلع على هذا الموضوع في كتاب أحمر مغبر اكتشفه على الرفّ الأعلى من مكتبة والده، مقلوب الرأس إلى أسفل بين كتاب عن البستنة وآخر عن الأعمال التجارية.

وما كان نوبورو يراه بعد ذلك هو منطقة سوداء. حاول

جاهداً أن ينظر، ولكنه لم يكن يراها بوضوح، حتى ولو كان يبذل من الجهد ما كان يجعل طرف عينه يؤلمه. واستحضر إلى ذاكرته جميع الكلمات الداعرة التي كان يعرفها، ولكن الكلمات لم تكن تستطيع أن تنفذ الى هذا الدّغل. ربما كان، كما كان ينعته أصدقاؤه، بيتاً صغيراً مهجوراً ومثيراً للرثاء. وتساءل عما إذا كان فراغ هذا البيت لم يكن على أية علاقة بفراغ العالم.

كان نوبورو، وهو في الثالثة عشرة من عمره، يتصوّر أنه عبقريّ (جميع أعضاء شلّته كانوا يعتقدون ذلك). وكان يعتقد أن الحياة تتلخص برموز وقرارات بسيطة. وأن الموت كان يتجذّر لحظة الولادة، وأن الإنسان لم يكن له من دور سوى حرث هذه النبتة وسقيها، وأن الإنجاب كان بناءً مصطنعاً للعقل، كما كانه، عن طريق الاستنتاج، المجتمع، وأن الآباء والمعلّمين، بسبب من طبيعتهم، كانوا مذنبين ومرتكبي خطايا كبيرة. وقد توصّل الى التفكير بأن موت والده، وهو بعد في الثامنة من عمره، كان حادثاً سعيداً يستطيع أن يبتهج له.

كانت أمه، في الليالي المقمرة، تطفىء النور وتقف عارية أمام مرآتها. وكان هذا الإحساس بالفراغ يحرم نوبورو من النوم في تلك الأمسيات. كان ابتذال العالم يتجلّى في الأماكن المضاءة كما يتجلّى حيث يخيّم ظلّ لطيف.

وفكر: لو كنت أمية بجسد متناهي الصغر، لاستطعت دحر هذا الابتذال. غير أنه ليس بين الآدميين من شخص قادر على دحر أيّ كان.

وعندما يكون مستلقيا في سريره كان هدير صفارات المراكب تدخل غالباً كأنها الكوابيس من النافذة المشرعة على سعتها. لو أن

أمه قد كانت لطيفة لاستطاع أن ينام من دون أن ينظرّ. ففي تلك الليالي كانت رؤية أمّه هي التي تسكن أحلامه.

لم يكن يبكي قط، حتى في الحلم. ذاك أن قساوة القلب كانت عنده نقطة كبرياء. وكان يروقه أن يتخيّل لنفسه قلباً قاسياً كمرساة حديدية تصمد لانحتات البحر، مستخفّة بالمحارات والأصداف التي تنقضّ على هياكل السفن، لامبالية بوحل المرفأ المزدحم ببقايا زجاج، وأمشاط بلا أسنان، وسدّادات قنان وأدوات للوقاية وأحذية عتيقة.. وكان يتمنى أن يعمل يوماً على وشم مرساةٍ على صدره..

كانت أسوأ ليلة بين جميع الليالي التي سببتها له أمه تقع حوالى آخر عطلة الصيف.

خرجت أمه باكراً في العشية، شارحةً له أنها كانت قد دعت ضابط صف معاوناً في الأسطول التجاريّ «تسوكازاكي» للعشاء كي تشكره لأنه كان قد رحّب بزيارة نوبورو إلى سفينته البارحة. كانت ترتدي كيمونو من التطريز الأسود فوق ثياب داخلية قرمزية. وكان حزامها من البروكار الأبيض. وعندما غادرت البيت حكم نوبورو بأنها كانت رائعة.

عادت إلى البيت في العاشرة مع تسوكازاكي، فاستقبلها نوبورو. وراح يستمع، وهو جالس في الصالون مع البحار الثمل بعض الشيء، إلى قصص البحر. وفي العاشرة والنصف قاطعت أمه الحديث وقالت لنوبورو إنه قد حان وقت ذهابه الى النوم. ورحّلته الى الطابق الأول مقفلة بالمفتاح باب غرفته.

حدث ذلك في ليلة بالغة الرطوبة. وكان الهواء داخل الصوان خانقاً الى حد أنه لم يكن باستطاعته التنفّس. وقد تجمّع تماماً عند

مدخل الصوان وهو ينتظر بقلق اللحظة التي يتّخذ فيها موقعه.
كان حوالي منتصف الليل عندما سمع وقع أقدام تصعد السلّم خلسة. رفع عينيه فرأى أكرة بابه تدور في الظلمة كما لو كان أحد يحاول الدخول، وهذا ما لم يحصل قط. وعندما سمع باب غرفة أمه يفتح، بعدَ لحظة، انزلق وهو غارق بالعرق الى داخل الصوان.

كان تسوكازاكي يرتدي قميصاً قصير الأكمام مزيّناً بكتفتين ذهبيّتين، وكان يسند ظهره إلى حافة الشباك المفتوح على سعته الذي كان أحد مصراعيه يعكس القمر الذي يلتمع في الجنوب. وكانت أمه، التي كان يراها من ظهرها، تقترب من الرجل فيتعانقان في قبلة طويلة. وأخيراً، تكلمت بصوت خافت، وهي تلمس أزرار قميصها، وتشعل ضوء المصباح الخافت، وما لبثت أن توارت عن النظر لأنها كانت واقفة أمام خزانة الحائط للثياب، وهي الزاوية من الغرفة التي لم يكن يستطيع أن يراها فيها، والتي بدأت منها بخلع ملابسها. كان يُسمع صرير الحزام كما يُسمع الصوت الثقيل للكيمونو وهو يسقط. وفجأة ثقل الهواء حول ثقب المراقبة عند نوبورو برائحة عطر «الأربيج». كانت قد رشحت عرقاً وهي تمشي، وشربت قليلاً بسبب حرارة الليل الرطبة، وبينما كانت تخلع ثيابها كان جسدها يصعّد رائحة ممسّكة لم يكن نوبورو يعرفها.

كان البحار ما يزال أمام النافذة، ينظر مباشرة نحو نوبورو. ولم يكن وجهه البرونزي يوحي بأيّ قسمات مميّزة، باستثناء العينين اللتين كانتا تلمعان على ضوء المصباح. وكان نوبورو يقارن البحار بالمصباح الذي كان يستعمله غالباً ليتخذ منه مقاساً، فيتمكن من

تقدير طوله.. لم يكن طوله على الأرجح إلا متراً وسبعين.. وعلى الأرجح أقل من ذلك بقليل، رجل معتدل الطول.

فكّ تسوكازاكي ببطء أزرار قميصه ثم تخلّص بيسر من ثيابه. وبالرغم من أن عمره كان من عمر أم نوبورو تقريباً، فإن جسده كان فتياً أكثر من أي شخص آخر من سكان اليابسة، ولا بدّ أنه كان مصبوباً في قالب البحارة. كانت كتفاه العريضتان تنفسحان كسقف هيكل. وكان صدره يتفجّر تحت فراش سميك من الشعر. وكانت عضلاته المنفوخة كعقد الحبال تبرز ناتئة على جسده كله. وكان لحمه يبدو كدرعٍ يمكن أن يتخلّص منها عند الحاجة. إذ ذاك تطلّع نوبورو بدهشة الى برج الهيكل المنتصب بازدهاء وهو ينبثق من الغابة الكثيفة لأسفل البطن. كان ضوء منحرف يتساقط على صدر تسوكازاكي العريض الذي كانت شعيراته ترمي عند كل تنفّس ظلالاً خفيفة. وكانت عيناه اللتان تلمعان بطريقة خطرة لا تفارقان لحظةً المرأة التي كانت تتعرّى. وكان القمر الذي يضيء الخلفيّة يرسم بخطّ ذهبيّ كتفيها المربعتين ويحدّد خطاً آخر ذهبيّاً لشريان رقبته الذي كان يبرز. لقد كان هناك ذهب حقيقيّ في لحمه، في هذا الضوء القمري، وفي هذا العرق الذي يتلألأ. واستغرقت أمه وقتاً طويلاً جداً حتى تعرّت. ربما كانت تفعل ذلك عن قصد.

وفجأة دخل هدير صفارة متطاول من النافذة المفتوحة فملأ القاعة نصف المعتمة. كانت صرخة كآبة بلا حدود، قاتمة، ملحّة، يائسة، كاملة السواد ولامعة كظهر حوت مثقل بجميع أشواق الأمواج، وبذكرى أسفار لا عدد لها، وبالأفراح، وبألوان الإذلال. كانت هي صرخة البحر التي تصدي. كانت الصفّارة،

المليئة بتلألؤ جنون الليل، تحمل من عرض البحر ومن أعماق المحيطات، حنيناً الى الحلاوة الكئيبة للغرفة الصغيرة. وبحركة فجائية من كتفيه، انفتل تسوكازاكي لينظر إلى البحر.

في هذه اللحظة، كلّ ما كان قلب نوبورو قد اختزنه منذ ولادته تكشّف وتفتّح بأعجوبة. وحتى اللحظة التي أصدت فيها الصفارة، كان كل شيء ما يزال في حالة التخطيط، ولكن كل شيء كان جاهزاً، ولا شيء ينقص بعد إلا هذه القوة القادرة على أن تلمّ كل عناصر تلك الحقائق المختزنة لتبني فجأة قصراً رائعاً. إذ ذاك صهرت إشارة الصفارة هذه المواد جميعها لتجعل منها كلاً متكاملاً: القمر وهواء البحر المحموم والجسد العاري المهتاج لرجل وامرأة، والعرق والعطر، وندوب الحياة البحرية، وتذكار المرافىء المشوّش حول العالم، ومنظار باب صغير يستحيل التنفس فيه، وقلب صبيّ صغير قاسٍ. ولكن هذه الكرتونات المبعثرة للعبة ورق لم تكن تتنبأ بشيء. إن النظام الكونيّ الذي استتبّ أخيراً بفضل هدير الصفارة الفجائي كان قد كشف دائرة حياة لا مفرّ منها. وتلك البطاقات قد تزاوجت: نوبورو وأمه، أمه والرجل، الرجل والبحر، البحر ونوبورو.

وفقد نوبورو نفسه، وهو غارق في النشوة والعرق. كان واثقاً من أن ما كان ماثلاً أمامه كان حلاً لربطة خيوط كانت ترسم وجهاً مقدساً. وينبغي لهذا الوجه أن لا يُدمَّر لأنه كان في الأرجح خالقه، هو ابن الثالثة عشرة.

وتمتم، وهو نصف حالم: «لو تمّ تدمير ذلك يوماً ما، لكان ذلك نهاية العالم. وأعتقد أن عليّ أن أفعل كل شيء لأحول دون ذلك، مهما كان فظيعاً».

الفصل الثاني

استيقظ تسوكازاكي دهشاً وهو في سرير لم يكن مألوفاً لديه. وكان السرير المجاور فارغاً. وتذكر شيئاً فشيئاً ما كانت قد قالته له قبل أن ينام: سيذهب نوبورو ليسبح مع أصحابه في «كماكورا» في الصباح. وأنها ستستيقظ باكراً لتوقظه، وأنها ستعود الى الغرفة فور ذهابه. هل يودّ انتظارها بهدوء؟ أخذ يتلمّس طاولة رأس السرير ليأخذ ساعته ويرفعها في النور الذي كان يتسرّب من خلال الستائر. الساعة الثامنة إلا عشر دقائق: إن الصبيّ كان على الأرجح، ما يزال في البيت.

كان قد نام أربع ساعات تقريباً، وقد غفا في الوقت الذي كان فيه، عادة، يستلقي في فراشه بعد نوبته في الحراسة. لم يكن سوى نوم عابر قصير. ومع ذلك فقد كان يحس رأسه صافياً. كانت لذة الليل الطويلة ما تزال متوترة فيه كالنابض. ومدّ ذراعيه وشبكهما أمامه. وتحت الضوء المتسلّل من خلال الستائر، كان شعر ذراعيه المعضلتين يبدو وكأنه يشكل دوّامات ذهبيّة. كان مسروراً.

وبالرغم من أن الوقت كان ما يزال باكراً، فقد كان الحرّ شديداً. كانت الستائر تتدلى بلا حراك أمام النافذة المفتوحة. وقد مدّ يده وكبس زرّ المروحة. خمس عشرة دقيقة من أجل نوبة الحراسة لضابط صف البحرية، «انتباه!» كان قد سمع في حلمه تنبيه نوتيّ الإشارة. كان «ريوجي» يؤمّن نوبة الحراسة كل يوم

من الساعة الثانية عشرة حتى السادسة عشرة ثم يعاودها من منتصف الليل حتى الرابعة صباحاً. كانت النجوم وكان البحر رفاقه الوحيدين. وعلى السفينة « راكويو » كان ريوجي يعتبر رجلاً نفوراً غريب الأطوار.. لم يكن قط ثرثاراً، وكان رفيقاً سيئاً في الاجتماعات التي كان البحارة يروون فيها قصصاً والتي كان يُفترض فيها أن تكون ملهاتهم الوحيدة. قصص النساء، نكات المراسي، التبجُّح الأزليّ. كان يمقت الثرثرات المبتذلة المرصودة لتبديد الوحدة، والتي تشكل طقساً دينياً تتأكد به روابط الانسان المتبادلة مع الآخرين. وبينما كان معظم الرجال يختارون مهنة البحّار حبّاً في البحر، فإن ريوجي كان قد عمل بحّاراً لأنه كان يمقت اليابسة. كان حظر الإبحار، الذي فرضته سلطات الاحتلال على المراكب اليابانية، قد رُفع في الوقت الذي تخرّج فيه من مدرسة البحرية التجارية، وكان قد أبحر على أول مركب يستأنف العمل، بعد الحرب، مع فورموزا وهونغ - كونغ. وفيما بعد، توجّه إلى الهند وباكستان.

كانت المناطق الاستوائية تملأ قلب ريوجي بالفرح. عندما كان يرسو في مكان ما، كان أطفال البلد الأصليون يقايضون جوارب النيلون والساعات بما كانوا يحملونه: موزاً وأعناباً هندية، وعصافير ذات ألوان زاهية، وقروداً صغيرة. وكان ريوجي يحب غابات النخيل الصغيرة التي كانت تنعكس على نهر بطيء وعكر. وكان يفكر بأن النخيل لا بد أنه قد كان مألوفاً في بلاده خلال حياة سابقة، وإلا لما كان يسحره قط إلى هذا الحد.

ومع ذلك، ومع مرور السنين، غدا لامبالياً أمام جاذبية البلاد الغريبة. وكان يتقاسم هذه الخاصية المثيرة مع كثير من البحّارة. لم

يكن ينتسب أساساً وبشكل جوهري لا الى اليابسة ولا الى البحر. فالمرء الذي يكره اليابسة ربما كان عليه ان يبقى عليها دائماً. وبالفعل، فإن البعد عن اليابسة والأسفار الطويلة في البحر تجبره على ان يحلم مرة أخرى باليابسة. وتعذّبه بعبثيّة التوق الى ما يبغضه. وكان ريوجي يكره جمود اليابسة ومظاهرها الثابتة أبداً. ولكن السفينة كانت ضرباً آخر من السجن.

عندما بلغ العشرين من عمره، خطرت فكرة بباله فجأة: «المجد! المجد! المجد!» ولم تكن لديه أية فكرة عن نوع المجد الذي كان يريده، ولا عن نوع المجد الذي كان مؤهلاً له. كان يعرف فقط أنه في أعماق العالم المظلمة، كانت هناك نقطة مضيئة هُيِّئت له وحده وأنها ستقترب منه يوماً لتضيئه، هو وحده، ولا أحد سواه.

غير أنه، كلما كان يفكّر، كان يبدو له حتمياً أنه لكي يصل الى المجد، فينبغي للعالم أن ينهار. فانهيار العالم والمجد شيئان لم يكونا يشكلان إلا كلاً واحداً. كان يتوق الى عاصفة، ولكن حياة الشاطىء لم تكن تعلمه إلا انتظام القوانين الطبيعية ورسوخ عالم متحرّك. وأخذ يتبصّر في آماله وأحلامه الواحد تلو الآخر ويمحوها واحداً فواحداً كما يمحو بحّارٌ الأيام من مفكرة قمريّته.

وكان يحس أحياناً، أثناء نوبة حراسته الليلية، أن مجده ينبثق من الظلمات العميقة وأن قامته البطولية يعكس صورتها وميض عدد لا يحصى من الحيوانات المشعّة على صخور شواطىء عالم البشر.

في مثل هذه الليالي، وعلى الطبقة العليا البيضاء من المركب المزدحمة بالقضبان والأنابيب السمعية والبيكار والرادارات وأجراس

البرونز المتدلية من السقف ـ في مثل هذه الليالي كـان يقين ريوجي يبلغ ذروة لم يبلغها من قبل.

« ـ يجب أن يكون لي مصير خاص، باهر، لا يُرصد لأيّ إنسان آخر ».

وفي الوقت نفسه كان يحب الموسيقى الرائجة. وكان يشتري جميع الأسطوانات الحديثة ويحفظها عن ظهر قلب عندما يكون في البحر. وكان يدندن منها ألحاناً عندما كان يجد لحظة لذلك، ويتوقف عندما يقترب منه أحدهم. كان يحب أغاني البحّارة. (وكان رفاقه يحتقرونها) وكان نغمه المفضل هو: لا أستطيع أن أهجر حياة البحّار.

صفّر المركب وقُصّ الشريط
وانزلق الشراع خارج الرصيف
رجل البحر سأكون
على المرفأ الذي يبتعد
بلطف أحرّك اليد للوداع [1]

وحالما كانت نوبة حراسته النهارية تنتهي، كان يحبس نفسه في قمريته التي كانت تظلم رويداً رويداً ويدير الأسطوانة نفسها مرة تلو الأخرى حتى ساعة العشاء. وكان يخفف دائماً من حدّة الصوت لأنه لم يكن يريد ان يسمع أحد اسطوانته، وكان يريد أن يمنع رفيقاً يكون قد سمع صدفة هذه الموسيقى من أن يأتي ليروي له قصصه. وكان باقي رجال المركب يعرفون عادته هذه فلم يكن أحد يزعجه.

---

(١) كلمات هذه الأغنية مقتبسة من قصيدة لـ « ريو يانو ».

أحياناً، وفيما هو يستمع إلى أغنية أو يردّدها، كان الدمع يطفر من عينيه كما في الأغنية. من الغريب ان يصبح رجل، لم يكن له أيّ ارتباط مع أي إنسان، عاطفياً وهو يفكّر بـ «المرفأ الذي يبتعد»، ولكن هذه الدموع كانت تفلت من جزء من نفسه كان مظلماً، بعيداً، كان قد أهمله حتى هذه السنة ولم يعد يقوى على ضبطه.

لم يكن يذرف دموعاً قط وهو يرى الأرض تختفي، بل كان يلقي نظرة احتقار على الرصيف العائم، وأحواض السفن، والمرافيع التي لا عدد لها، وسقوف مستودعات المنطقة الحرة التي كانت تبتعد برفق من مجال النظر. عشر سنوات من الإبحار كانت قد تمكنت من جعله يتخلى عن هذا الشعور بالتمزق ساعة الرحيل. وما كان قد كسبه، كان اللون البرونزي من الشمس وحدّة النظر.

كان ريوجي يستلم نوبة الحراسة وينام، ويستيقظ، ويعاود نوبة الحراسة وينام من جديد. كان مليئاً بعواطف لا يعبر عنها. وكانت ادّخاراته تتضخّم بلا انقطاع لأنه كان يحاول أن يبقى وحيداً قدر الإمكان. وقد أصبح خبيراً بتحديد طرف الشمس، وتآلف مع النجوم، وبرع في فن تخزين الحبال، وفي مختلف أعمال القذف، وصار قادراً، وهو يستمع إلى نشيد الأمواج الصاخب، أن يميّز، بأذنه في الليل، نبضات البحر الموقّعة وهدهداته البطيئة.. وفيما كان يتآلف مع الغيوم الاستوائية الرائعة وبحار المرجان وألقه المتعدّد الألوان، كان رصيد حسابه في البنك يرتفع الآن حتى قارب مليوني ين، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لضابط صفّ في البحرية.

في الماضي، كان ريوجي قد عرف ملذّات المجون. وكان قد فقد عذريته أثناء سفرته الأولى. ففي هونغ - كونغ كان رفيق أقدم منه قد اصطحبه الى منزل عاهرة.

كان ريوجي مستلقياً على السرير النحاسي، وقد ترك المروحة تبدّد رماد سيجارته وأغمض عينيه نصف إغماضه كما لو أنه يقيّم على ميزان، الفرق الكمّي والنوعي بين ملذّات الليلة السابقة والإحساس البائس لتجربته الأولى. وإذ شردت عيناه في المدى كان يرى في أعماق ذاكرته أرصفة هونغ - كونغ المظلمة، في المساء، وكثافة الماء الموحل الذي كان يلامس ارصفته، والفوانيس الناعسة لزوارق السمبان التي كانت تطفو أمامه. وفي البعيد، وفيما وراء غابة صواري الطوافات ذات المراسي وأشرعة القش المجدول التي كانت منكّسة، كانت النوافذ الباهرة ولافتات هونغ - كونغ الضوئية تكسف الفوانيس الضعيفة في المستوى الأول وتصبغ الماء الأسود بألوانها.

ركب ريوجي مع رفيقه الذي سبقه في التخرج زورقاً كانت تقوده امرأة في منتصف العمر. كان المجذاف، عند الكوثل، يجعّد الماء بينما كانوا ينزلقون في المرفأ الضيق. وعندما وصلوا الى المكان الذي كانت فيه الأضواء المترنّحة تتجمّع، شاهدوا عدداً كبيراً من غرف بنات مصطفة في الضوء، ملتصقة بعضها بالآخر. وقد رست الطوافة على خطوط ثلاثة لمستوى ماء منخفض. وأديرت جميع الكوائل نحو الداخل وازدانت بعيدان البخور التي كانت تشتعل وبأعلام من الورق الأبيض والأخضر تحتفل بالآلهة المحلية. وكان قماش من الحرير المزدان بالورد يحيط الخزانات عند الجسور المسطحة مكوّنة قبباً نصف - دائريّة. وخلف كل قبّة مذبحٌ مزيّن

بالقمـاش نفسه يحمل مرآة صغيرة. وكانت صورة زورق ريوجي تتهادى من غرفة الى أخرى بينما كان ينزلق أمام المراكب.

وكان يبدو على الفتيات أنهن لا يبدين أي انتباه لهم. كانت بعضهن تلتف في أغطية مضرّبة، لا يظهرن للبرد سوى رقابهن الطفولية المغطاة بمسحوق أبيض. أما البعض الآخر، فقد لففن أردافهن بأغطية وكن يلعبن بالورق ليتنبأن بمستقبلهن. وكانت ألوان الأوراق الباهتة من الأحمر والذهبي تبرق بين الأصابع الرقيقة والمصفّرة.

سأل صاحبه: «أيّهـن تـأخـذ؟ جميعهـن شـابـات» لم يجب ريوجي. فهو سيختار امرأة لأول مرة في حياته، ولكونه قد أبحر مسافة ألف وستمئة ميل ليصل إلى هذه الطحالب ذات الأحمر المتسخ الطافية في مياه هونغ - كونغ الموحلة، فقد أحسّ نفسه مرهقاً ومرتبكاً. ومع ذلك فإن البنات كن بـالتـأكيـد شـابـات وجذّابات، وقد اختار إحداهن قبل أن يعطيه رفيقه نصيحته.

كانت البغيّ جالسة، ساكتة، غارقة الوجنتين في الأغطية من شدة البرد، ولكن عندما مرّ ريوجي بجانبها ابتسمـت ابتسامة سعيدة. واعتقد نصف اعتقاد بالسعادة التي سيحقّقها لها. وسحبت ستار المدخل المورّد.

وجرى كل شيء بصمت، ارتجف قليلاً بافتخار، كما سبق له عندما تسلّق الصاري لأول مرة. كان القسم السفلي لجسد المرأة الشبيه بحيوان صغير متخدّر ومسترخ، يتحرك تحت الأغطية المحشوّة بقطن مندوف كما لو أنه كان ما يزال في سبات. لقد كان لديه الإحساس بأن النجوم كانت تتحرك بخطر عند رأس الصاري. كانت تميل الى جنوبه، وتمر الى الشمال وتدور الى الشرق

وأخيراً تبدو وكأنها تنتظم على الصاري. وعندما أدرك أن هناك امرأة أمامه انتهى كل شيء.

طُرق الباب ودخلت كورودو فوزاكو حاملة صينية كبيرة من أجل الفطور. «آسفة لجعلك تنتظر طويلاً الى هذا الحد. لقد ذهب نوبورو على التو». ووضعت الصينية على مائدة الشاي ثم سحبت الستائر وفتحت النافذة: «ليس هناك نسمة هواء، سيظلّ الجوّ حاراً».

حتى الظلّ بالقرب من النافذة كان ملتهباً كالإسفلت المذاب. استقام ريوجي في السرير وأحاط خاصرتيه بالغطاء المدعوك. كانت فوزاكو مرتدية ثيابها وجاهزة للخروج. وقد مدّت ذراعيها العاريتين لا لتقبّل ريوجي بألفة، ولكن لتسكب بلا تردّد قهوة الصباح في الفناجين. لم تعد ذراعاها بعد ذراعي الليلة الماضية.

وأشار اليها ريوجي لتقترب من السرير فأعطاها قبلة. كان جلد جفني فوزاكو الناعم الحسّاس يفضح اضطراب البؤبؤين. وأدرك أنها، هذا الصباح، لم تكن هادئة حتى عندما كانت تغمض العينين.

سألها: في أيّ وقت ستذهبين الى المخزن؟

- عليّ أن أكون هناك الساعة الحادية عشرة. وأنت؟ ماذا ستفعل؟

- يمكنني أن أهبط الى المرفأ لبعض الوقت. فقط لأرى ما يجري هناك.

في ليلة واحدة.. كانا قد خلقا وضعاً جديداً، ولكنه وضع يبدو أنه قد تـركهما مبلبلين. أمـا الآن، فـإن هلعهما وحـده كـان سمـة علاقتهما.

فكّر ريوجي بالطريقة التي يمكنه الذهاب بها، بما كان قد اعتاد ان يسمّيه «كلبيّة الأشخاص الحمقى التي لا يمكن سبرها». وكان وجه فوزاكو المشرق يوحي الى ريوجي بعدد من الحلول، انبعاث أو امّحاء تام في الذاكرة، أو حتى التصميم ليثبت، لها وللعالم، أن ما كان قد حصل لم يكن خطأ، بأيّ معنى للكلمة.

قالت فوزاكو وهي تتوجّه نحو الأريكة: «سنتناول طعام الغداء هنا».

قفز ريوجي خارج السرير وارتدى ثيابه على عجل. كانت فوزاكو واقفة أمام الشباك.

- كنت أتمنى لو نستطيع رؤية مركبك من هنا.

- لو لم يكن الرصيف بعيداً عن المدينة الى هذا الحد.

اقترب من خلفها، فأمسكهـا من خصرها. ونظر كلاهما الى المرفأ.

كانت النافذة تشرف على سقوف المستودعات العتيقة الحمراء. وكانت مجموعة من المستودعات الجديدة الشبيهة بالبيوت السكنيّة من الباطون ترتفع بدءاً من المرفأ باتجاه الشمال. وكانت القناة تختفي تحت مجموعة القوارب. وخلف منطقة المستودعات كانت كوم من الخشب التي تجفّ تشكّل فسيفساء معقدة. وكان كاسر الأمواج الطويل ممدّداً كأصبع من الباطـون على البحـر. وكـانـت شمس

الصيف الصباحية تبدو كورقة معدن تبهر البصر كما لو أنها كانت قد طُرقت على السندان الضخم لمسرح المرفأ.

ولامست أصابع ريوجي طرفي نهديها فوق الفستان القطنيّ الأزرق وأدارت رأسها قليلاً، فدغدغ شعرها أنفه، وكالعادة تملّكه الإحساس بأنه قادم من بعيد جداً، من الطرف الآخر من الأرض، ليصل الى نقطة مفرطة الحساسية، رعشة في طرف أصابعه بالقرب من نافذة ذات صباح صيفيّ.

كانت رائحة القهوة والمربّى تملأ الغرفة.

قالت: «يبدو لي أن نوبورو على اطّلاع الى حدّ ما. بالطبع يبدو أنه يحبك كثيراً، إن ذلك بالطبع لا يشكّل إزعاجاً كبيراً. ومع ذلك فإني لا أفهم كيف تمّ ذلك. أريد أن أقول... (وشذّ صوتها قليلاً..) هذا لا يصدّق».

الفصل الثالث

كان « ريكس » أحد المخازن الأكثر عراقة والأكثر شهرة لبيع الأصناف المستوردة في موتوماشي في يوكوهاما.

ومنذ وفاة الزوج، كانت فوزاكو قد تولّت إدارة المخزن بنفسها. وكان الفندق ذو الطابق الواحد، والطراز الإسباني، يلفت الأنظار. وكانت الواجهة المفتوحة في حائط سميك أبيض لا تزال تحتوي على عرض مختار. وفي الدور السفليّ، فوق الأرضيّ، كان يمتدّ صحن الدار الصغير المزخرف ببلاطات مبرنقة إسبانية مستوردة. وفي منتصف الصحن، كان نبع صغير يخرخر، وكان « باخوس » برونزيّ، إحدى التحف الفنيّة الكثيرة الغريبة التي اشتراها الزوج قبل موته، يحمل بإهمال على ذراعه بعض ربطات العنق من ماركة « فيفكس »، مباعة بأسعار جديرة بأن تزهّد الزبائن غير الجدّيين.

وكان يساعد فوزاكو مدير مسنّ وأربع بائعات. وكان زبائن المحلّ من الأجانب الأغنياء الذين يعيشون في يوكوهاما، ومن عدد من الأشخاص الأنيقين وممثلين من طوكيو وحتى من بعض صغار البائعين في « جينزا » كانوا يسعون وراء اللُّقى.

وكان « ريكس » منذ زمن بعيد محلّ ثقة بسبب رهافة وصفوة بضائعه، وخاصة الأقمشة والسلع المستوردة للرجال. وكانت فوزاكو وشيبويا، المدير الذي كان له ذوق زوجها، لا يشتريان إلاّ بدراية.

فكلما دخل مركب مرفأ يوكوهاما، كان ممثّل في الاستيراد،

وهو صديق قديم للعائلة، يستغل علاقاته ليرافقها إلى المستودعات ما أن يُفرّغ المركب: وغالباً ما كانت فوزاكو قادرة على تقديم عرض قبل أن يكون سائر المشترين قد رأوا البضاعة المحمّلة. وكان المبدأ الموجّه لهذه المرأة هو أن تضع الجودة في المستوى الأول، فيما هي تتدرّج في أسعار المبيع. مثلاً بالنسبة للكنزات «جيجر»، كانت توصي بنصف الكمية من الصنف الممتاز وبالنصف الآخر من صنف أكثر تواضعاً. وكذلك كان الأمر بالنسبة للجلود الإيطالية: فقد كان «ريكس» يحصل على جلود من مدرسة الدباغة المرتبطه بدير سانتا كروس في فلورنسا كما يستورد القفّازات والجزادين الأكثر غلاءً من «فيا كوندوتي».

وبالرغم من أن فوزاكو لم تكن تستطيع أن تسافر الى الخارج بسبب نوبورو، فإنها كانت قد أرسلت، العام الماضي، السيد شيبويا الى أوروبا ليقوم بالمشتروات، وكان أن أسّس علاقات جديدة على مدى القارّة كلها. كان السيد شيبويا قد كرّس حياته للأناقة الثيابية. وكان «ريكس» يخزّن حتى الرّانات الانكليزية، وهذا ما لم يكن بالإمكان إيجاده في مخازن «جينزا».

وصلت فوزاكو الى المخزن كالعادة وفي الساعة نفسها. واستقبلت بالترحاب المعهود. طرحت بعض الأسئلة المتعلقة بالأعمال، وصعدت الى مكتبها وفضّت بريدها. وكانت آلة التبريد في النافذة يخرخر بطريقة احتفالية.

كان عزاءً كبيراً بالنسبة لفوزاكو أن تستطيع الجلوس الى مكتبها في الساعة المعتادة، وكان ينبغي للأمر ان يكون كذلك. ليس لهذا اليوم فقط أو لبقية الأيام الأخرى لم تكن تستطيع أن

تتخيل ما كان يمكن ان يحصل لو كانت قد بقيت في البيت بدلاً من أن تأتي الى العمل.

أخذت سيجارة نسائية من علبتها، وألقت نظرة، وهي تشعلها، على مفكرتها الموجودة على المكتب. إن كازوكا يوريكو، الممثّلة السينمائية التي تعيش في يوكوهاما، ستصل عند الظهر لتقوم بمشتروات ضخمة. فبعد عودتها من مهرجان في أوروبا حيث كانت قد أنفقت كل ميزانية الهدايا، كانت تأمل أن تسوّي الأمور بهدايا من ريكس. كانت قد تلفنت طالبة «توابع فرنسية أنيقة لحوالي عشرين رجلاً. ابذلي جهدك من أجل ذلك». بعد ذلك بقليل، بعد الظهر، ستأتي سكرتيرة من مستوردي يوكوهاما لتأخذ طلبية من البولو (قمصان للرياضة) الإيطالية كان رئيسها، مدير المؤسسة، قد اعتاد ارتداءها على ملاعب الغولف. كانت هاتان المرأتان، زبونتين وفيَّتين يسهل حقاً إرضاؤهما.

كان من الممكن مشاهدة جزء من الصحن من تحت الأبواب ذات المغاليق الشباكية. كل شيء كان هادئاً. وكان لطرف أوراق شجر الصمغ، في زاوية، بريق باهت. وفي الظاهر، لم يكن أحد قد وصل بعد.

كانت فوزاكو تخشى أن يكون شيبويا قد لاحظ ما كان يخيّل إليها أنه احرار حول العينين. كان الرجل المسنّ ينظر الى المرأة كما لو أنه كان يتعامل مع قطعة قماش، حتى ولو كانت هذه المرأة مديرته.

لم يسبق لها، في الواقع أبداً، أن قامت بإحصاء حتى هذا الصباح: خمس سنوات منذ وفاة زوجها! لم يكن ذلك يبدو لها

طويلاً الى هذا الحد ولكن فجأة، غدت هذه السنوات الخمس بطول مدوّخ، كأنها حزام أطول من أن يستطاع عقْدُه.

كانت فوزاكو تتسلى بالمنفضة وهي تبعدها بسيجارتها التي تطفئها. وكان الرجل يلتهم جميع زوايا جسدها. وتحت قماش الكيمونو كان لديها إحساس بأنها تمتلك، تحت النهدين كما عند الردفين لحماً مكتنزاً تتّحد جميع أجزائه في انسجام حارّ. كان هذا إحساساً جديداً. وحتى الآن كانت رائحة عرق الرجل ما تزال حاضرة في منخريها. وإذ كانت تفكر به، وتّرت أصابع رجليها داخل جوربيها.

كان اللقاء الأول لفوزاكو مع ريوجي يعود الى الليلة قبل البارحة. كان نوبورو، المهووس بالمراكب، قد تملّقها لكي تحصل من زبون له مكانةٌ عالية في شركة للملاحة على إذن خاصّ لزيارة « راكويو »، وهو مركب حمولته عشرة آلاف طن راسٍ في مرفأ « تاكاشيما ».

توقّفت الأم وابنها لحظة عند طرف المرفأ لكي ينظرا الى المركب السكّري الأخضر الذي كان يلتمع في البعيد. وكانت فوزاكو تحمل شمسية طويلة الذراع من جلد الحيّة.

سألها نوبورو: « هل ترين هذه المراكب في عرض البحر؟ إنها كلّها تنتظر مكاناً حرًّا لترسو عند المرفأ ».

أجابت فوزاكو وهي تتأوّه: ـ من أجل هذا نعاني السأم بانتظار التفريغ.

كانت تحسّ بالحر، لمجرّد النظر الى المركب. وكانت السماء المبُقعة بالغيوم مقسمة بتقاطع معقّد من الحبال الثخينة. وكان

الجؤجؤ ينتصب عالياً بشكل لا يُصدّق نحو السماء كأنف دقيق وشامخ. وعند الصاري الكبير كان علم الشركة الأخضر يخفق في الهواء. وكانت المرساة تتدلى عند «الكبليّة» كسلطعون ضخم من المعدن الأسود.

صرخ نوبورو ببراءة تامة: - إنني فرح جداً. سوف نرى المركب من جميع زواياه.

- لا تنتظر أكثر مما ينبغي! لا أدري بعد إن كانت هذه الرسالة ستكفي.

وفيما بعد، عرفت فوزاكو، وهي تستعيد التفكير بالأمر، أنها كانت قد أحست بقلبها يرقص في اللحظة نفسها التي كانت قد رفعت عينيها نحو «راكويو».

«هذا غريب. ها أنا مستثارة مثل نوبورو».

هذا الشعور استحوذ عليها فيما كانت مسترخية تماماً، وكانت حركة رفع الرأس الوحيدة تجلب الحرّ وتبدو مُتعبة.. كلّ ذلك فجأة وبلا سبب.

«هناك جسر يُغسل بالماء الوافر. إنه مركب جميل».

كان نوبورو، العاجز عن لجم المعلومات التي كانوا يحشون بها رأسه، يدلي بجميع التفاصيل لأمه التي لم تكن تجد فيها كبير أهميّة. وعندما اقتربا بدا لهما راكويو يتعاظم كأنه قطعة موسيقية كبيرة. وإذ تقدّم أمه، اندفع نوبورو الى الطبقة العليا اللامعة كالفضّة. ولكن كان على فوزاكو أن تفتّش في الممر المتقدّم عن المقرّ العام للضباط وهي تحمل بطريقة يائسة الرسالة للقائد. وفي المكان الذي كانوا يفرغون فيه، كانت الجسور مليئة بالحركة والضجيج، ولكن الممر الخانق كان ساكتاً بشكل بغيض.

في هذه الأثناء فتح باب القمرية التي كانت تحمل لافتة..
« ضابط صفّ البحرية » وبدأ تسوكازاكي، وهو يرتدي قميصاً أبيض ذا أكمام قصيرة وعلى رأسه قبعة:

ـ هل تستطيع أن تقول لي أين يمكن أن أجد القائد؟

ـ إنه غائب. ماذا تريدين؟

أعطته فوزاكو رسالة التعريف. ورفع نوبورو رأسه نحو تسوكازاكي وعيناه تبرقان.

« لقد فهمت. زيارة للدراسة! سأنوب عن القائد لأجعلكما تزوران المركب ».

كانت حركاته فظّة، ولم يكن ينظر إليها مواجهة وهو يحدّثها.

هكذا كان لقاؤهما الأول.. وستتذكر فوزاكو دائماً عينيه آنذاك، عينيه الغائرتين جداً في وجه مسمرّ، عابس وكئيب. كان ينظر اليها وهو يحدّق، كما لو أنها كانت نقطة عند الأفق، الظهور الأول لمركب. على الأقل كان هذا هو الشعور الذي انتابها. وبالنسبة لعينين لم يكن لهما إلاّ النظر إلى شيء قريب لم يكن من الطبيعي أن يجعلها نافذتين إلى هذا الحد، وأن يركز بصره بطريقة حادّة إلى هذا الحد، كما لو كان مدى رحب من البحر كان قد فرّقهما. وتساءلت عما إذا كانت جميع العيون التي تراقب الأفق بلا انقطاع كانت شبيهة بهاتين العينين، عينان تكتشفان مركباً عند نقطة غير متوقّعة تسبران قلقها وأفراحها، حذرها وآمالها... ولم يستطع المركب المتفحّص إطلاقاً ان يغفر الإهانة بسبب اتساع الماء الذي كان يفصلهما. نظر مدمّر. كانت عينا البحّار تجعلانها ترتجف.

قادهما تسوكازاكي أولاً إلى الطبقة العليا من المركب. كان السلم الحديدي الذي يصعد إلى قمة الجسر مشطوباً بالخطوط التي تحدثها

شمس الأصيل؛ وأشار نوبورو الى المراكب المبلّلة في عرض البحر وأعاد ملاحظته كرجلٍ مطّلع:

ـ قل لي، أعتقد أن هذه المراكب جميعها تنتظر مكاناً حرّاً؟

ـ بالضبط، يا صغيري. هناك من ينتظر أربعة أيام أو خمسة.

ـ هل ينبئونكم بالراديو عندما يفرغ مكان ما؟

ـ هذا صحيح أيضاً. نتلقى اتصالاً من الشركة وهناك بعثة تحدّد كلّ يوم أوليات الدخول إلى المرافئ.

كان قميص تسوكازاكي الأبيض مبقّعاً في أمكنة متعدّدة ببقع من العرق، كاشفاً لحم ظهره القويّ. كانت فوزاكو مشوّشة. كانت تعترف بالجميل للرجل الذي كان يأخذ نوبورو مأخذ الجد، ولكنها كانت تتضايق عندما كان يستدير نحوها ويطرح عليها أسئلته مباشرةً.

سألها وهو ينظر إليها من جديد وجهاً لوجه:

ـ إن الصبي يعرف عما يتحدث. هل يريد أن يصبح بحّاراً؟

كان من الصعب على فوزاكو أن تقول إذا كان هذا الرجل البسيط واللامبالي في آن كان يمتلك أو لا كبرياء مهنته. وعندما نظرت بانتباه الى وجهه، بعد أن كانت قد فتحت مظلتها، حاولت أن توضّح السؤال. واعتقدت أنها قد اكتشفت شيئاً لا متوقّعاً في ظل حاجبيه السميكين، شيئاً لم تكن قد لاحظته في الضوء المشعّ.

قال تسوكازاكي، من دون أن يهتمّ بالجواب: «وإذن. فينبغي له أن يتخلّى عن هذه الفكرة، فليست هناك مهنة أكثر منها بؤساً.»

ثم أردف وهو يطبطب بيده على آلة تشبه قطراً أبيض منتصباً على ساق طويلة:

« إنها، يا صغيري سُدسيَّة ثابتة ».

وعندما ولجوا الطبقة العليا من المركب، أراد نوبورو أن يلمس كل شيء: أنبوب الإنصات المتّصل بغرفة الآلات، الجهاز الدوّاري، مقياس المسافة، شاشات الرادارات، مسجّل الطريق، الأسطوانة الدوّارة الحاملة الأوامر: قف، انتبه، الى الأمام، وعدداً آخر لا يُحصى من الأسطوانات الأخرى التي تبعث على تخيّل مخاطر الإبحار. وفي الغرفة المجاورة، غرفة الخرائط، فحص الرفوف المليئة بالخرائط والطاولات، ودرس خريطة تحمل تشطيبات قلم وأخرى في طور التحضير. كانت الخريطة تزرّد البحر بخطوط كيفية كانت تظهر وتعيد ظهورها بطريقة مثيرة للدهشة. والشيء الذي كان أشد سحراً كان يوميّة السفينة: كان طلوع الشمس وغروبها مسجّلين بدوائر نصفية صغيرة، وكان زوج من طرفي هلال مذهّبين يشيران إلى أوجه القمر، وكان مدّ البحر وجزره يبدوان بخطوط متعرجة.

وبينما كان نوبورو يتيه في أحلامه، كان تسوكازاكي واقفاً بالقرب من فوزاكو. وبدأت حرارة جسده، في غرفة الخرائط الخانقة تضغط عليها. وعندما سقطت شمسيتها التي كانت قد أسندتها على طاولة محدثة ضجة بلا صدى، خيّل إليها أنها هي التي كانت قد سقطت بعد إغماء.

أطلقت صرخة صغيرة. وانزلقت الشمسية أمام قدميها. فانحنى البحّار على التوّ والتقطها. وبدا لفوزاكو أنه كان يتحرّك ببطء غطّاس تحت الماء. التقط الشمسيّة وإذ ذاك، ومن أعماق هذا البحر

الذي مكث فيه من دون أن يستردّ نفسه، صعدت قبعته البيضاء على مهل الى السطح.

دفع «شيبويا» أبواب المكتب المشبّكة. وأعلن وهو يخفي التجاعيد العميقة لوجه منهمك:

ـ لقد وصلت كازوكا يوريكو.

ـ حسناً، سأنزل حالاً.

أسفت فوزاكو لجوابها الجافّ، فقد سُحبت بطريقة فجائية من أفكارها. وراقبت وجهها في المرآة المثبتة على الحائط. وتخيلت أنها كانت ما تزال في غرفة الخرائط.

كانت يوريكو في صحن المحل مع إحدى مرافقاتها. كانت ترتدي قبعة كبيرة بشكل عبّاد الشمس. والواقع أن الهدايا التي كانت تشتريها اليوم كانت تشكّل إحدى لفتاتها المألوفة تجاه لجنة الحكم. وكان استعدادها لتصديق كل الفضائح، باستثناء ما كان يعنيها، كان يسمح بالافتراض أنها جديرة بأن تمنح نفسها بلا تردّد الى جميع أعضاء لجنة الحكم إن هي اقتنعت بأن ذلك يمكن أن يخدمها. كان على يوريكو أن تناضل لكي تقوم بأود عائلة من عشرة أشخاص، وفي الوقت نفسه كانت حسناء ساذجة. وبالإضافة الى ذلك، كانت، كما تعرف فوزاكو، امرأة متوحّدة جداً. ومع ذلك، وبالرغم من أنها كانت زبوناً جيداً، فإن فوزاكو كانت تجدها صعبة الاحتمال.

غير أن فوزاكو كانت ذات لطف كاسح. وكانت عيوب يوريكو وابتذالها جلية أكثر من المعتاد ولكنها عيوب كانت تبدو أيضاً باردة وغير عدائية كسمكة حمراء تسبح في حوض.

قالت: « لقد فكرت في بادىء الأمر أن القمصان السميكة ستكون جيدة لأننا أصبحنا تقريباً في الخريف، ولكن من المفروض أخذ أشياء اشتريت هذا الصيف، لذلك اخترت بعض ربطات عنق من ماركة « كالدن » وبعض قمصان البولو الرياضية وريش « جيف » من أربعة ألوان. وبالنسبة للنساء، فإن العطور تفي بالمطلوب بالتأكيد. لقد هيأت كل هذه المشتروات. وعلى كل حال سأريك إياها.

ـ كنت أريد ذلك. ولكن لا وقت ألبتة عندي. بالكاد أملك وقتاً لأتناول على عجل ما يشبه الغداء. هل يمكنني أن أتكل عليك كلياً؟ الشيء الهامّ هو العلب والعرض في ورق جميل. هذا ما هو حقيقيّ في هديّة. ألا تعتقدين ذلك؟

ـ لا تقلقي إطلاقاً من هذه الناحية.

ـ أريد أن تختار لي ماما. من دونها، لا أتوصّل الى شراء شيء ».

كان يزعج فوزاكو أن تُنادى ماما كأنها مديرة حانة. وقد نزلت ببطء وتوجهت نحو يوريكو.

ـ أهلاً بك. ما يزال الحرّ هذا اليوم أيضاً.

كانت الممثلة تتذمّر من الحرّ المضني ومن الحشد الذي كان ينظر الى الفيلم وهو يُصوَّر على الشاطىء.

وتصوّرت فوزاكو ريوجي بين هذا الحشد وتأثر من ذلك مزاجها.

ثلاثون متتالية هذا الصباح! هل تتصورّين ذلك؟ هذا ما يطلق عليه السيد هوندا تصوير فيلم.

ـ هل سيكون الفيلم جيداً ؟

ـ بالطبع لا . إنه ليس من نوع الأفلام الذي يتيح الفوز بجائزة .

كان الفوز بجائزة أحسن ممثلة قد غدا وسواساً عند يوريكو . ووصلت سكرتيرة رئيس دائرة الاستيرادات في يوكوهاما بينما كانت يوريكو تغادر ،وكانت آخر زبونة في هذا النهار . وكعادتها طلبت فوزاكو نفسها إلى مكتبها ، من دكان الحلوى المقابل ، غداء بسيطاً مكوّناً من شطائر وفنجان شاي ، وجلست أمام صينيتها ، وحدها من جديد . وغرقت براحة في كرسيّها كنائم ينزلق تحت أغطيته ليحاول استدراك حلم انقطع . وأغمضت عينيها ورجعت من دون جهد الى جسر « راكويو » .

قيدت الأم وابنها مع تسوكازاكي ليشهدوا تفريغ المركب . نزلوا على الجسر الذي شاهدوا منه رفع سلع الحوض الرابع . وكان الحوض ينفتح على كوة كبيرة معتمة في الجسر عند أقدامهم . وكان رجل يعتمر قبعة صفراء ، واقفاً على حفة الكوة الضيق القائم فوقهم تماماً ، يوجّه المرفاع بإشارات من يده .

وكانت أجساد عمال الحوض نصف العراة تلتمع بغموض في قعر المركب . وكانت الطرود ، لكي تصل الى فتحة الضوء الكامل ، تُرفع من قعر الحوض بذراع المرفاع الذي كان يرفعها وهو يؤرجحها نحو الفتحة . وكان ضوء الشمس يرسم بقعاً على الطرود ، ويرافقها حتى هبوطها الى الصندل المنتظر أمام الفتحة .

كانت فوزاكو واقفة تحت شمسيتها المفتوحة ، تراقب الأعمال المضنية التي تتم ببطء مدروس ، وانطلاق الطرود العنيف واحداً بعد الآخر وبريق الفضة الخطر الذي كان يقذفه مكان مهترئ من الكابل .

وكان لديها الإحساس بأنّ الطرود الثقيلة تسقط عليها، محمولة واحداً تلو الآخر بذراع مرفاع قويّ، فجأة ولكن بعد تحضير طويل. وكانت ترتجف عند رؤية الطرود التي لم يكن إنسان يستطيع أن يحرّكها والتي كانت تطير بخفة في السماء. كان باستطاعتها أن تستمر في النظر إلى ما لا نهاية. كان هنا، بلا شك، مصير الطرود، ولكن كانت هنا، وفي الوقت نفسه، آية من الاحتقار. وفكرت: «إنه يفرغ بسرعة». كان العمل يتقدم حتماً ولكن ليس من دون لحظات تردّد، وبطء، لحظات تكون فيها الحرارة من القوة بحيث تترك المرء صريعاً.

عند ذلك كان لا بد لها من ان تقول: «حقاً إنه لطف منك أن تكون قد اطلعتنا على مركبك في الوقت الذي يفرض فيه أن تكون مشغولاً إلى هذا الحد. ولكي نشكرك على ذلك، إن كنت حرّاً غداً، فهل تريد أن نتعشّى معاً في مكان مّا؟»

ولا بدّ أنها نطقت بهذه الكلمات بلهجة باردة بعض الشيء، ولكنها كلمات بدت، في أذني تسوكازاكي، كأنها شهوة امرأة ضربها الشّبق. ونظر إلى فوزاكو بعينين نزيهتين تماماً تشعّ منهما الدّهشة.

وفي العشيّة التالية، ذهبا لتناول العشاء في «نيو غران أوتيل». لم يكن ذلك أكثر من عشاء شكر. وكان يأكل بطريقة ملائمة، كما يليق بضابط. وبعد العشاء كانت هناك نزهة طويلة. «قال لي إنه يريد أن يعيدني إلى البيت. ولكننا ذهبنا إلى المنتزه الجديد على الرابية، ولم نكن نحس الرغبة في أن نتمنى لبعضنا ليلة سعيدة. وجلسنا على مقعد. وتبادلنا حديثاً طويلاً، في مختلف الموضوعات. لم يسبق لي قط أن تحدّثت حديثاً طويلاً كهذا مع رجل، على الأقل منذ وفاة زوجي».

الفصل الرابع

رجع ريوجي إلى مركبه لبعض الوقت بعد أن ترك فوزاكو التي توجّهت إلى المتجر، ثم قام بدورة سريعة في التاكسي في الشوارع المقفرة والخانقة من الحرّ. صعد بعد ذلك إلى المنتزه الذي كانا قد توقفا فيه الليلة السابقة.. لم تخطر له فكرة الذهاب الى مكان آخر بانتظار الساعة التي كانا قد تواعدا فيها على اللقاء بعد إغلاق المتجر.

كان الوقت ظهراً، وكان المرفأ مقفراً، وكان نبع ماء الشرب الصغير يفيض وهو يصبغ بالأسود البلاطة الحجرية. وكانت الزيزان تئزّ في أشجار السرو. ومن المرفأ الذي يمتدّ عند قدم الرابية كانت تصعد جلبة صمّاء. ولكن من خلال هذا المشهد في قيظ الظهيرة، تذكّر ريوجي الليلة الماضية. وكان فكره يستعيد وقائعها التي لم يكن يكفّ عن تذوّق ذكراها.

ومن غير أن يهتمّ بالعرق الذي كان يُغرق وجهه، نزع بطرف أصابعه ورق السيجارة المجفّف الذي كان ملتصقاً على شفتيه بينما كان يردّد لنفسه: «كيف تأتّى لي أن أتكلم بهذه البلادة الليلة الماضية؟»، لم يكن قادراً على شرح أفكاره عن المجد والموت، عن الحنين والكآبة التي كان صدره العريض مليئاً بها، عن الأشواق القاتمة الأخرى التي كانت، في فكره، تفيض في المحيط. وكلما حاول أن يتحدّث عن هذه الموضوعات، كان يفشل. وإذا كانت قد مرّت عليه لحظات كان يحكم فيها على نفسه بأنه إنسان بلا قيمة، فقد كانت هناك لحظات أخرى، كانت فيها روعة الشمس الغاربة فوق خليج «مانيل» تنفذ

فيه، وكان يدرك إذ ذاك أنّه كان قد اختير ليسيطر على الرّجال الآخرين. ولكنه ظل عاجزاً عن عرض قناعاته أمام فوزاكو. وذكّر نفسه بسؤالها: «لماذا لم تتزوّج أبداً؟»

وعليه كان قد أجاب بطريقة مبهمة: «ليس من السهل وجود امرأة ترغب أن تتزوّج بحّاراً».

وما كان قد أراد قوله هو هذا: «جميع الضباط الآخرين لهم الآن ولدان أو ثلاثة أولاد، وهم يقرأون ثم يعاوِدون قراءة الرّسائل التي يتلقّونها منهم، رسائل كان أطفالهم يرسمون فيها الآن منزلهم مع الشمس والأزهار. هؤلاء الرّجال قد زهدوا بكل فرصة تُتاح لهم. ليس لديهم بعد أيّ أمل. وأنا لم أحقّق شيئاً كبيراً، ولكنّني عشت حياتي كلها وأنا أعتقد أنني كنت الوحيد الجدير باسم «إنسان». فإذا كنت على حق، فإن بوقاً واضحاً، متوحّداً سيدقّ ذات يوم عند الفجر. وستهبط غيمة ضخمة مشعّة وسيناديني صوت المجد الثاقب من البعيد، ولن يكون عليّ إلاّ أن أقفز من السرير وأمضي وحيداً، لأجل ذلك لم أتزوّج أبداً. لقد انتظرت وانتظرت. والآن تجاوزت الثلاثين».

ولكنه لم يكن قد قال شيئاً، لأنه كان يعتقد أن امرأة لن تفهم شيئاً من هذا كله. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الرجل لا يلتقي إلاّ مرة واحدة في حياته المرأة المتفوّقة، ولكن الموت يتدخل حتماً من دون أن يكون أحدهما قد توقّعه. من أجل ذلك فإنهما مسيّران بالقدر. وانطلاقاً من مفهومه لشكل مثاليّ للحبّ وُلد بسهولة في أعماق نفسه، لم يكن أيضاً قد قال شيئاً. كان هذا الأمر على الأرجح نتيجة الإفراط بالأغنيات الرائجة. ولكن مع مرور الأيام، كانت الفكرة قد قويت وتعمّقت في زاوية من دماغه حيث اختلطت بأشياء أخرى:

مفهوم غامض عن مدّ البحر وجزره، هدير تلاطم الأمواج القادمة من عرض البحر، تقصّف الأمـواج الضخمـة المدمّـرة التي تتكسّـر على الصخور، قوة المدّ المختبىء الذي يلاحقك. كان متأكّداً من أن المرأة التي كانت أمامه كانت امرأة أحلامه. ليته فقط كان يجد كلمات ليعبّر عـن ذلك. وفي الحلـم الكبير الذي كان ريوجي يحضنه بصمت منذ زمن طويل جدّاً، كان هو إنجاز جميع الفضائل، وكانت المرأة النموذج لكل النّساء. كلاهما كان قادمـاً مـن نقطتين متقـابلتين مـن الأرض ليلتقيا صدفة، وكان الموت يجمعهما. وبدلاً من أن يقلّد حثالة الناس في لحظات الوداع الذي يتبع ساعات فسق البحّارة، كان عليه أن ينزل إلى أعماق قلب لم يسبق لأيّ رجلٍ أن دخله أبداً. ولكنه ما كان يستطيع أن يقول لفوزاكو أدنى نتف من أفكاره المجنونة.

وبدلاً من ذلك كان قد تكلّم هكذا: «عندما يمرّ المرء أمام المطبخ أثناء رحلة بحرية طويلة ويشاهد خفيةً لفتاً أو أوراق لفت، فإن منظر هذه الخضرة يعطيك طعنة في القلب، وتشتهي أن تعبد هذه النوامي الخضراء. أي نعم، أليس كذلك؟ إنني أفهمك جيداً».

في هذه اللحظات كانت كلمات فوزاكو تنتشر كبلسم مؤاسٍ. وأعار ريوجي فوزاكو مروحته لتطرد البرغش. وفي البعيد، كانت الأنوار فوق صواري المراكب عند المرساة تتلألأ بين النجوم. وكانت فوانيس سقوف المستودعات من تحتها تصطفّ شرائط ضوئية منتظمة التباعد. وكان يودّ لو يتحدّث عن الشهوة التي تقبض على الإنسان من عنقه لتحمله إلى مملكة تقع وراء الخوف من الموت. ولكنه لم يجد الكلمات الضرورية فاندفع في رواية المحن التي كان قد عاناها وظل مسمّر اللسان.

كان والده، الموظّف في بلدية طوكيو، قد ربّاه، مع أخته، بعد

موت الأم. ولكي يواجه نفقات تعليمه، اضطر الشيخ، وقد وهنت قواه، لأن يقوم بأعمال إضافية. ورغم كلّ شيء، فقد تحوّل ريوجي، وهو يكبر، إلى رجل صلب. وفي الجزء الأخير من الحرب، كان منزله قد هُدّم بقصف جويّ. بعد ذلك بقليل ماتت أخته بالتيفوس، وكان قد حاز على دبلوم المدرسة البحرية التجارية العليا، وكان على وشك البدء بمهنتـه عندما توفّي والده هو الآخر. وكانت ذكرياته الوحيدة عن حياة اليابسة هي ذكريات الفقر والمرض والموت، كما كانت أيضاً ذكريات تدمير لا نهاية له. وعندما أصبح بحّاراً، كان ينسلخ عن الأرض إلى الأبد. كانت هي المرّة الأولى التي يتحدّث فيها عن هذه الأشياء، وبهذا الإسهاب، إلى امرأة.

وعندما كان ريوجي، من دون أن يكون مضطراً لذلك، يسترسل بشيء من الاعتزاز عن بؤس حياته، ويذكر في الوقت نفسه رصيد مدّخراته، لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه، تماماً كرجل عادي، عن أن يمجّد قدرة البحر وحسناته. كانت لديه الرغبة في التحدّث عن البحر لكي يستقي المجد من قيمته. كان ذلك مظهراً خاصّاً من غروره كان يريد أن يتحدث عن البحر، أن يقول مثلاً: «إنّه حقّاً بفضل البحر أتته فكرة التفكير بالحبّ أكثر من التفكير بأي شيء آخر، عن حب يضنيك، ويستحق أن يموت الإنسان من أجله. وبالنسبة لرجل سجين بصورة دائمة في مركب من الفولاذ، فإن البحر الذي يحيط به يشبه امرأة إلى حدّ بعيد. وهذا حتميّ عندما ندرك هدوء أمواجه وعواصفه، نزواته أو جمال صدره الذي يعكس الشمس الغاربة. غير أنّ المركب الذي يبحر فيه والذي يتقدّم وهو يشقّ الماء، هو أبداً مدفوع منه، وبالرغم من أن كمية هذا الماء لانهائيـة، فإنه لا يجدي نفعاً لإرواء الغليل الذي يعاني منه المرء. وإذا كان البحّار محاطاً

بعنصر طبيعي يذكّره بامرأة، فإنه محكوم عليه أن يكون مُبعداً عن جسد امرأة جميل: هنا تكمن المشكلة كلها. إنني أعرف ذلك.

ولكن وسط كل هذه الشروح المفصّلة، كان اللحن نفسه يعود أبداً إلى شفتيه:

لقد قرّرت أن أصبح بحّاراً.

ومع ذلك. فمن المرفأ الذي يبتعد.

قالت فوزاكو: «إنني أعرفه. إنّ اللحن جميل». ولكنه كان يدرك أنها تريد ببساطة أن تبرّر كبرياءه. كان من المحتم أنّها كانت تسمع اللحن للمرة الأولى بالرغم من أنها ادّعت أنه كان مألوفاً لديها. «إنها لا تستطيع أن تفهم العواطف التي يبعثها في نفسي المعنى الحميم لهذا النغم، ولا أن تنفذ حتى الأعماق المظلمة لقلبي، قلب رجل يبكي أحياناً لفرط الحنين. وبالاختصار، فأنا لا أستطيع أن أعتبرها إلا ككائن مختلف عني».

ولاحظ، وهو يلقي نظرة عليها، أن هذا الكائن كان يمتلك جسداً رهيفاً ومعطّراً.

كانت فوزاكو ترتدي كيمونو من الدنتيل الأسود فوق آخر بلون قرمزيّ، وكان حزامها من البروكار الأبيض، وكان وجهها يطفو، بارداً، في الظلمة. وكان القرمزي الفتّان يتكشّف من خلال التخريم الأسود.

كانت كائناً تملأ رهافته الجوّ المحيط بوجود نسائيّ كامل. لم يكن ريوجي قد رأى إطلاقاً امرأة بهذا البذخ وبهذه الأناقة.

كان ثوبها ينتقل من القرمزي إلى البنفسجي الغامق عند كلّ حركة خفيفة للجسد، معدّلاً الزاوية التي تضيئه من تحتها فوانيس

الزئبق البعيدة. وكان يرى، تحت هذه الثياب الشفافة، الثنيات التي يحدثها جسد المرأة عند كل تنفّس. وكانت رائحة عرقها ورائحة عطرها يوصلها إليه النسيم وتبدو وكأنها تصرخ فيه بلا انقطاع: « مُت! مت! » وكان ريوجي يتخيّل الوقت الذي تصبح فيه الأصابع الدقيقة المترددة التي تتحرّك خلسة أصابع من نار وسط الحريق.

كان أنفها جميلاً وشفتاها لذيذتين. وكلاعب « الغو » الماهر الذي يضع حجراً على لعبته بعد تفكير ناضج، كان ريوجي يضع في دائرة رؤياه ملامحها الواحد تلو الآخر ويستمتع بها. كانت عيناها تتميزان ببرودة جليدية وبهدوء هما الشبق نفسه، عينان، بالرغم من اللامبالاة تجاه العالم، توشكان على أن تتبدلا رأساً على عقب، فاضحتين قلباً محبّاً للتضحية، وكانت ذكرى هاتين العينين قد لاحقت ريوجي منذ اتفاقهما على العشاء معاً وأرّقته طوال الليل.

وأيّ كتفين شهوانيتين! كتفين، كخط الشاطىء، لم تكن لهما بداية، وتهبطان برفق من منبت الرقبة، كتفين أنيقتين، نبيلتين، مصنوعتين بحيث يتمكن الحرير من أن ينزلق عليهما ويتهدّل « عندما كنت أمسك نهديها في يدي، كانا يقبعان ثقيلين من الترشح بين راحتيّ. كنت أحسّني مسؤولاً عن لحم هذه المرأة كلّه، وذلك لأنّها تمثّل شيئاً هو لي وأسيطر عليه، شيئاً مليئاً بالعذوبة، والأنانية والنزوات. إنني أرتعش أمام هذه العذوبة اللامتناهية لحضورها هنا. وعندما تحسّني أرتجف تدير بياض عينيها كما يقلّب الهواء الأوراق ليكشف عن ظهرها ».

وفجأة قفزت قصة غريبة إلى ذاكرة ريوجي، كان القائد قد رواها له. كان قد قال له إنه، ذات يوم، وفيما كان يجتاز البندقية أثناء أقصى المدّ، زار قصراً رائعاً. وكان قد اندهش إذ وجد بلاط الطبقة

السفلي للقصر الصغير الجميل كأنه تحت الماء. وبلا إرادة منه أخذ ريوجي يتمتم: قصر صغير جميل تغمر أرضه المياه.

قالت فوزاكو: «حدثني بعد». ومن دون أن يجيب، أدرك ريوجي أنه كان يستطيع أن يقبّل شفتيها. وعندما تبادلا قبلة، كانت حركة شفاههما الزلقة والملتهبة تتغيّر في كل مرّة تتّحد أو تفترق. وكان يسكب أحدهما على الآخر سيلاً من الضياء كان ينحلّ إلى سلك ضوئي مليء بالعذوبة والحنان.

كانت الكتفان اللتان كانت تداعبهما الآن راحتاه الخشنتان أكثر حقيقية من أيّ كتفين أخريين سبق له أن رآهما في الحلم على الإطلاق.

وكحشرة تنغلق بين جناحيها المطويتين، أسبلت فوزاكو أهدابها الطويلة، وفكر ريوجي: تلك سعادة من القوّة بحيث تكفي لتجعل الرجل مجنوناً، سعادة كانت تأتي من حيث لم يكن يدري. وكان تنفّس فوزاكو يبدو في بادىء الأمر قادماً من مكان ما من صدرها، ولكن، شيئاً فشيئاً، تبدّلت حرارتها ورائحتها حتى بدت تتضوّع من عمق فيها لا يُسبر. وكان نار تنفّسها يتبدّل بوضوح هو الآخر. ونشب جسداهما أحدهما بالآخر واصطدما كما يصطدم جسدا حيوانين متوحّشين يتدافعان في حركات نزقة على طول دائرة نارٍ تحيط بهما. وتراخت شفتا فوزاكو. وفكر ريوجي بأنه سيسعده أن يموت في هذه اللحظة. وعندما مسّ طرف أنفه البارد أنفها أدرك لحظتها فقط، وهو يرسل ضحكة مكتومة، أنهما كانا جسدين متميّزين تماماً.

وهو لا يتذكّر أبداً كم من الوقت قد انقضى قبل أن تقول فوزاكو:

ـ «ألا تريد أن تأتي لتمضي الليل في البيت؟ إنه البيت الذي يشاهد سقفه هناك».

وأشارت بإصبعها إلى سقف من القرميد كان يتجاوز السقوف الأخرى، عند حدود المنتزه.

نهضا ونظرا حولهما. غرّز ريوجي قبعة البحّار بقوة في رأسه وأمرّ ذراعه على كتفي فوزاكو. لم يكن ثمة أحد في المنتزه، وكانت منارة «تور دو لامارين» الدوّارة تكنّس بأشعتها الخضراء والحمراء المقاعد الحجرية الفارغة في المنتزه المقفر، ونبع ماء الشرب، وحدائق الزهور، والبلاطات الحجرية البيضاء.

وألقى ريوجي، بفعل العادة، نظرة على ساعته. كان يستطيع أن يرى بدقة ميناها على ضوء مصباح خارج المنتزه: كانت الساعة العاشرة وبضع دقائق. وكان ذلك يعني له عادة ساعتين قبل موعد نوبة حراسته الليلية.

لم يستطع ريوجي أن يتحمّل وقتاً أطول من ذلك حرارة النهار. كانت الشمس الآن في الغرب وكانت تحرق عنقه. كان قد ترك قبعته في «الرايوكو».

كان اليوم قد بدّل ثيابه على المركب. وكان قد ذهب بقميص قصير الأكمام وبلا قبعة. وكان الضابط الأعلى قد أعفاه من نوبة الحراسة ليومين وانتدب مكانه الضابط الثالث على أن يحلّ محلّ هذا في التوقّف القادم. ومن أجل لقائه هذا المساء مع فوزاكو، كان قد ارتدى طقماً مدنياً ووضع ربطة عنق، ولكن العرق كان قد بدأ الآن يدعك قميصه. نظر إلى ساعته، لم تكن بعد إلا الرابعة. وكانت فوزاكو قد أعطته موعداً عند السادسة في مقهى موتوماشي - دوري الحاوي على تليفزيون ملوّن، وقد كان عنده الآن ساعتا انتظار، وهذا لم يكن يستحقّ عناء الدخول الى المقهى. وقد اتّكأ على الدرابزين الذي كان يستعمل كحاجز للمنتزه ونظر إلى المرفأ. ولما قارنه بما كان

قد عرفه حتى الآن من مرافىء، رأى المستودعات التي تبسط ظلالها المثلثة على المساحات المستعاضة على البحر. وكان مركبان شراعيان أبيضان أو ثلاثة تبحر لتعاود الدخول إلى حوض اليخوت. ولم تكن الغيوم المكدّسة في عرض البحر تنذر بعاصفة عند المساء، ولكن في هذه الأثناء، كانت الشمس الغاربة تنحت بدقة في ركامها الناصع البياض ما كان يشبه العضلات المتوترة، وإذ تذكّر لعبة خبيثة من لعب طفولته، اقترب ريوجي من نبع ماء الشرب الموجود في زاوية من المنتزه. وسدّ الأنبوب بسبابته، وفجّر مروحة من الماء على الأضاليا والأقحوان الأبيض الصيفي والقنا التي كانت تحني الرأس تحت وطأة الحرارة. ارتعشت الأوراق، وارتفع قوس قزح صغير تحت فوّارة الماء، ونصبت الأزهار رأسها، ومن دون أن يهتمّ ببلل قميصه قلب الفوّارة وتسلّى بأن حمّم شعره ووجهه. كان الماء يقطر من حلقه على صدره وبطنه ناسجاً ستارة لذيذة ومنعشة، لذة لا توصف.

وتنفّض كما يفعل كلب. وحمل سترة بذلته على ذراعه متّجهاً إلى مخرج المنتزه. كان قميصه مبللاً ولكنه لم يكلّف نفسه عناء خلعه؛ كانت الشمس كفيلة بأن تجفّفه بسرعة.

وخرج من المنتزه. كان دهشاً من هدوء البيوت الممتدّة على طول الطرق، تحت سقوف متينة، محاطة بحيطان أسوار. وكالعادة، كانت حياة اليابسة تبدو له غامضة وغير حقيقية. حتى عندما كان يمرّ أمام باب مطبخ تُرك مفتوحاً، وكان متأثراً بلمعان أواني المطبخ المجلوّة جيداً، فإنه كان يجد أنه كان ينقص كل شيء، وبشكلٍ مريع، شيء ما محسوس. وكان يخشى أيضاً رغباته الجنسية خصوصاً إذا كانت جسدية. وكانت ذكرى بعضها التي كان الزمن قد نفاها شيئاً فشيئاً في

ذاكرته لم تبق فيها إلا كبريق شبيه ببريق ملح يتبلور تحت شمس محرقة على سطح محلول نقيّ.

سأنام أيضاً وبلا شك مع فوزاكو هذا المساء. ومن المحتمل أن لا أنام لحظة واحدة من هذا الليل الأخير من الإجازة. سيبحر المركب غداً مساء. سأتبخّر على الأرجح بأسرع مـن ذكـرى هـاتين الليلتين الخارقتين.

كانت الحرارة تطرد لديه كل رغبة في النوم. وكان الخيال يشحذ رغبته وهو يمشي. وتجنّب، بأعجوبة، عربةً غريبةً ضخمة كانت تصعد الشاطىء بأزيز قويّ.

رأى إذ ذاك فريقاً من الصبية الصغار كانوا ينطلقون من ممرّ ضيق عند قدم الرابية. وحين لمحوه، توقّف أحدهم على الفور؛ كان هو نوبورو. كان ريوجي يلاحظ تحت السروال القصير ركبتي الفتى الصغير الطفلتين وقد تصلّبتا فجأة لكـي يتـوقـف في الأوان. ورأى الملامح المتوتّرة للوجه الذي كان ينظر إليه وتذكّر ما كانت فوزاكو قد قالته له: «لقد كان شيء ما عند نوبورو هذا الصباح، تقريباً كما لو أنه كان يعرف...»

وجهد ريوجي، وهو يسيطر على الدهشة التي اجتاحته لحظة، وهو يجد نفسه في حضور الولد، جهد أن يبتسم وصرخ:

«اوه! أي لقاء سعيد! هل أخذت حماماً ممتعاً؟».

ولم يجب الصبيّ. وكان ينظر بحدّة الى قميص ريوجي المبتلّ بنظرة صافية لامبالية. قال:

ـ آه! كيف أغرقت نفسك هكذا؟

ـ هكذا؟ (سأل ريوجي وهو يرسم من جديد ابتسامة قسرية) لقد استحممت عند نبع ماء الشرب في المنتزه.

الفصل الخامس

كان من المزعج لنوبورو أن يكون قد التقى ريوجي في المنتزه. وكان يتساءل كيف يستطيع أن يمنع البحّار من أن يتحدّث مع أمّه عن هذا اللقاء. لم يكن قد ذهب ليستحمّ في كماكورا.. بالإضافة إلى ذلك، فإن أحد الصبية الذين كان ريوجي قد رآهم معه كان قائد المجموعة. ولم يكن لهذا الأمر أهميّة أخرى: إن أحداً لا يمكنه أن يكون جديراً، للنظرة الأولى، بأن يعيّن من بينهم من كان القائد.

في ذلك الصباح، كان الصبية قد غادروا المدينة يحملون أطعمة باردة مصرورة، وتوجهوا على أقدامهم إلى مرفأ يامانوشي في كناغاوا. ولبعض الوقت، كانوا قد سلكوا الخط الحديدي خلف عنابر الأرصفة ثم كانوا قد عقدوا اجتماعهم المعتاد ليتناقشوا في لا جدوى الجنس البشريّ، والعبث الذي كانته الحياة.. كانوا يحبّون أمكنة كهذه، غير أمينة، وحيث كانوا دائماً معرّضين لخطر الإزعاج. وكان القائد والرقم ١، و٢ و٣ (كان هذا نوبورو) و ٤، و ٥ صبية قصّاراً، مرهفين، وتلامذة مجتهدين في المدرسة. والواقع أن معظم أساتذتهم لم يكونوا يكفّون عن امتداح هذه المجموعة المتفوّقة ويضربونها مثلاً تجاه التلامذة الأقل موهبة.

وكان رقم ٢ قد اكتشف هذا المكان في الصبيحة. وكان القائد الأول والآخرون قد أقرّوا اختياره.

خلف عنبر كبير يحمل عبارة «يامانوشي، مخزن رقم ١» كان دربُ مرآب ذي سكك حديدية صدئة، خارج الاستعمال، في الظاهر

منذ زمن طويل، يتعرّج مع آلات التحويل الصدئة هي أيضاً، وسط حقل بلا زرع بين أقحوانات بريّة ذات سيقان طويلة، وأكداس من الأطواق العتيقة.

وفي البعيد، في الحديقة الصغيرة التي تتقدّم مكتب المخزن، كانت القنا تلتهب في الشمس. هذا لهيب نهاية الصيف: وكانت الأزهار قد بدأت تذبل، ولكن طالما كانت مرئية فإن الصبية ما كانوا يشعرون أنفسهم خارج نطاق رؤية الحارس. لذلك عادوا على أعقابهم وتابعوا دروب المرآب في اتجاه معاكس. وكان هذا الدرب ينتهي أمام الباب المحكم الإغلاق لمخزن فارغ. وخلف السور القائم من أكداس التنك العتيق الأحمر والأصفر والأسمر المدعوم إلى البناء، اكتشفوا مربع أعشاب مختبىء عن الأنظار جلسوا عليه. كات أشعة الشمس الحادّة. تتوّج قمّة السقف ولكن مربّع العشب كان ما يزال في الظلّ. « مدهش، هذا البحّار. كان كحيوان خرافي ينبثق من البحر وقد سال الماء من جسمه كله. ولقد رأيته الليلة الماضية ينام مع أمي! » وبدأ نوبورو، وهو منفعل، يروي القصة المفصّلة للواقعة التي كان قد شاهدها الليلة السابقة. وكان الصبية جميعاً يصغون إليه ببرودة، ولكنه رأى أنهم لم يكونوا يفارقونه بعيونهم ويبذلون كل جهودهم لفهم كل كلمة من كلماته، وكان راضياً بذلك.

« بطلك، هو هذا؟ » سأله القائد عندما انتهى من روايته. كانت شفته العليا تميل إلى الارتفاع عندما كان يتكلم: « بطل! ليس من شيء يمكن أن نسميه بهذا الاسم في العالم ».

ـ « ولكنه هو مختلف. سوف يقوم بالتأكيد بعمل ما. لو كنت تعلم!

ـ بأيّ شيء؟

ـ سيقوم بفعل شيء رائع عما قريب.

ـ أبله! رجل كهذا لا يعمل شيئاً على الإطلاق، إنه يهدف على الأرجح ثروة أمّك. وعندما يكون قد امتصّها حتى النخاع يقول لها: لقد انتهى كل شيء، يا سيدتي، إلى اللقاء!

ـ هذا شيء ما، بعد كل حساب. شيء لا نقوى نحن على صنعه.

ـ ما تزال أفكارك عن الأشخاص ساذجة إلى حد بعيد (قال القائد ابن الثلاثة عشرة ببرودة). ليس هناك من شيء لا يمكن أن نصنعه مما يستطيع البالغون أن يصنعوه، هناك سِمةٌ هائلة اسمها «المستحيل» أُلصقت بالعالم. وأنا أطلب منك ألاّ تنسى أننا الوحيدون القادرون على تحطيم هذه الكلمة نهائيّاً.

كان الصبية يلتزمون الصمت وقد أخذتهم الخشية والاحترام.

ـ وأهلك؟» سأل القائد وهو يلتفت إلى رقم ٢ «أفترض أنهم يعارضون دائماً أن يشتروا لك بندقية بالهواء المضغوط؟

ـ أه، ليس هناك من أمل» تمتم رقم ٢ وهو يحيط ركبتيه بذراعيه.

ـ يقولون على الأرجح أن ذلك خطر.

ـ أجل.

كانت غمازتان تحفـران عميقـاً وجنتي القـائـد الأبيضين حتى في الصيف «إنهم لا يعرفون ما هو الخطر. إنهم يفكرون أن الخطر هو شيء يجرح جسدياً، شيء يُسيل بعـض الدم ويحرّض الصحـافـة على كتابة مقالات طويلة مثيرة. ما هذا؟ إن الخطر، هو الحياة، وليس شيئاً آخر. وما نسميه الحياة هو ببساطة ركام مشوّش من الحيوانات التي تتفتت في كل لحظة حتى نقطـة يستـأنـف فيهـا التشـوّش الأوّلي

ويتغذى من الاختلال والخوف ليعيد خلق الوجود في كل لحظة. ليس هناك من ظاهرة أشد خطراً. ليس هناك من قسوة في الوجود نفسه، ولا اختلال، ولكن الحياة هي التي تخلقها. وليس للمجتمع أي معنى بشكل أساسي. إنه حمّام مختلط على الطريقة الرومانية للرجال والنساء. والمدرسة هي نسخة مصغّرة عنه، من أجل ذلك نتلقى أوامر بلا انقطاع. عميان يقولون ما يجب عمله ويمزّقون إرَباً إرَباً طاقاتنا اللامحدودة.

سأل نوبورو رقم ٣: والبحر؟ والمراكب؟ أنا واثق من أنني، الليلة الماضية، كنت قد أمسكت معنى النظام الحميم للحياة الذي تحدّثت عنه.

ـ أفترض أن البحر يمكن احتماله إلى حدّ ما.

وأخذ القائد نفساً عميقاً من الهواء المملّح الذي كان يهبّ بين المرائب.

ـ في الواقع، من الأرجح أن البحر يمكن احتماله أكثر من أيّ شيء آخر من الأشياء النادرة التي يمكن احتمالها. ومع ذلك فإنني لا أعرف شيئاً عن المراكب. لا أرى لماذا يكون مركبٌ ما مختلفاً عن سيارة.

ـ لأنك لا تفهم شيئاً عنه.

ـ اوه!

وبدا تعبير كبرياء جريح بين حاجبي القائد الذي كانت لهما دقة قمرٍ في يومه الثالث. وكان مظهرهما المصطنع كما لو أنهما قد رسما؛ فقد كان غلطة الحلاّق الذي، بالرغم من احتجاجات القائد، كان يحلق جبينه فوق الجفنين.

ـ لا بأس.. منذ متى لك الحق أن تفترض أنني لا أعرف شيئاً عن مهنتي؟

قال الرقم ٥ الذي يفكر كرجل: « هيا لنتناول الغداء ». وفضّ جميع الصبية زواداتهم من الطعام البارد على ركبهم. في أثناء ذلك رأى نوبورو على زوادته ظلاً لم يكن قد لاحظه من قبل. رفع رأسه وشاهد حارس المستودع العجوز، مسنداً مرفقيه على تنكة. كان ينظر إليهم.

ـ هولا، أيها الصغار! لقد اخترتم مكاناً وسخاً لنزهتكم.

وبهدوء مثير للإعجاب، ابتسم القائد له بهيئة التلميذ النموذجي وقال له:

ـ ألا تستطيع أن نبقى هنا؟ لقد جئنا لنشاهد المراكب ثم بحثنا عن مكان في الظلّ لنتناول فطورنا.

ـ لا بأس، لا بأس. حاولوا أن لا تتركوا أوراق الصرّ مبعثرة.

ـ نعم. نعم.

كانوا جميعهم يضحكون بهيئة الأطفال البريئة.

ـ إننا جائعون إلى حد نأكل معه حتى ورق الصرّ. لن نترك شيئاً مبعثراً.

نظروا إلى الرجل المحنيّ الظهر يبتعد سالكاً الخطّ بين الشمس والظلّ. طقطق رقم ٤ لسانه وقال:

ـ « إنه عجوز طيب. إنه يحب الشباب، من أجل ذلك بدا متساهلاً بشكل مدهش ».

تقاسم الصبية الستة الشطائر وكلّ ما كانوا قد أحضروه معهم، وشربوا الشاي المنعش من زجاجات « الترمس » الصغيرة. وحطّ سرب

من عصافير الدوري على درب المرآب، تماماً خارج زمرة الصبية ولكن بما أنهم كانوا يضعون شرفهم في أن يظهروا بلا رحمة، فإن أحداً من الصبيان لم يتقاسم أصغر فُتاتٍ مع العصافير.

كان جميع هؤلاء الصبيان أولاد عائلات عريقة. والأطعمة التي كانوا قد جلبوها معهم كانت كثيرة ومتنوّعة. وكان نوبورو خجلاً قليلاً من شطائره البسيطة. وكانت المجموعة تتربّع، بعضهم بالسروال القصير والآخرون بسراويل طويلة من نسيج محبك مزمومة عند الكاحلين. وكان أسفل عنق القائد الضيّق يتحرّك بمشقة عند كل لقمة كان يبتلعها. كان الطقس حاراً بشكل مريع. وكانت الشمس تقذف الآن نبال أشعّتها رأساً على السقف الذي كانت جوانبه الواطئة لا تكاد تؤوي الصبيان. كان نوبورو يمضغ فطوره بعجلة وفق عادة لم تكفّ أمه عن أن تلومه عليها، ويحوّل نظره نحو الضوء الباهر في الأعلى، وهو يأكل فاغر الفم كما لو أنه كان يريد ان يقبض على الشمس. وكان الرسم الدقيق لمشهد الليلة يعود إلى ذاكرته.. كان تقريباً تجلياً لسماء زرقاء زرقة مطلقة في الليل الدامس. وكان القائد يؤكّد أن المرء لا يستطيع أن يجد في أيّ مكان من العالم شيئاً جديداً، ولكن نوبورو كان يؤمن بمغامرة مكتومة في أعماق بلد استوائي، ويؤمن بمرفأ بعيد، وبسوق شديدة التلوّن والصخب، وبالموز والببغاوات التي يبيعها عبيد ذوو أذرعة لَمّاعة.

قال القائد بابتسامة باردة: «إنك تحلم وأنت تأكل؛ إنها عادة صبيانية». ورأى نوبورو أن حالة فكره قد انكشفت، فلم يستطع ان يجيب بشيء. ورضخ لأنه يفكر، وتذكّر أنّهم في مجموعتهم كانوا يطبّقون هذا التعليم: «لا تظهر أيّ حماس، وإنّ من الحماقة ان يغضب المرء».

كان نوبورو قد رُبّي تربية لا يمكن معها لأيّ شيء، من وجهة النظر الجنسية حتى مشهد الليلة السابقة، أن يدهشه. وكان القائد قد بذل كل عنايته ليتأكد من أن أحداً من شلّته لن يقلقه مشهد كهذا. كان يملك صوراً تظهر المجامعة في أكثر أوضاعها غرابة، ومجموعة من التقنيات التي تسبق المجامعة. وكان قد شرحها بطريقة مفصّلة وهو يعلّم الصبيان لامعنى مثل هذه الأفعال وضآلة قيمتها. وعادة، فإن مثل هؤلاء الأساتذة يتفوّقون على رفاقهم بنموّ جسديّ، ولكن تعليم القائد كان مختلفاً تماماً. كان يؤكّد أن الأعضاء التناسلية للرجل كانت مرصودة للمجامعة مع نجوم المجرّة، وأن شعر العانة الذي كان ينبت لهم عند أسفل البطن كانت جذوراً نيليّة اللّون لشعر مدفون بعمق تحت الجلد الأبيض، وأنه كان يبرز إلى الخارج في أوقات الاغتصاب لكي يدغدغ حطام النجوم المليئة بالخجل. وكان الصبية يستسلمون كلّيّاً إلى هذا النوع من القصّ المقدّس،وكانوا يحتقرون رفاقهم البُلَهاء الذين يثيرون الشفقة الملاحقين بفضولية الأشياء الجنسيّة.

قال القائد: «عندما ستنتهي من الأكل، ستعود إلى البيت. كلّ شيء جاهز، هل تدري لأيّ هدف؟

ـ هل عندك قطّة؟

ـ سأحضر لك واحدة، لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً.

كان بيت القائد مجاوراً لبيت نوبورو. وكان عليهم أن يستقلّوا الترام للعودة الى البيت، ولكنهم كانوا جميعاً يحبّون رحلات كهذه لا معنى لها، ومضجرة.

في بيت القائد كان الأهل غائبين دائماً، وكان بيت هؤلاء الأشخاص الذين يخرجون باستمرار للتسلية أبداً فارغاً. وكان الصبيّ

ذو الثلاثة عشر عاماً، هذا، الوحيد أبداً، قد قرأ جميع كتب البيت التي انتهت إلى إضجاره. كان يقول إنه كان يكفيه أن ينظر إلى غلاف كتاب ليعرف محتواه.

وكان من الطبيعيّ أن يكون فراغ هذا البيت قد غذّى أفكار القائد عن فراغ العالم الساحق. ولم يكن نوبورو قد رأى أبداً بيتاً يكون فيه المدخل والمخرج مفتوحين إلى هذا الحد، وكان يدهشه أن يجد فيه هذا العدد من الغرف الباردة. كان البيت يخيفه الى حدّ أنه كان يخاف أن يذهب وحده الى المراحيض. وكان أزيز صفارات المرفأ يصدي من غرفة فارغة إلى غرفة فارغة. أحياناً، كان القائد يقود الشلّة الى مكتب عمل أبيه، فكان يجلس أمام مرفقة الورق الرائعة من جلد الماعز المدبوغ والملوّن، ويكتب الموضوعات التي ستناقش وهو يقوم بحركات مهمة للريشة بين المحبرة والورق ذي العنوان المحفور. فإذا ما غلط، كان يدعك الورقة السميكة من ورق الاستيراد ويرميها بلا تحفّظ في سلّة الأوراق العتيقة. ذات مرّة، سأله نوبورو:

ـ «هذا التصرّف، ألا يسبّب لك توبيخاً؟

لم يجبه القائد إلا بابتسامة شكّاكة وباردة.

ولكن الصبية كانوا يحبّون خاصة مرآباً كبيراً في الحديقة، خلف البيت، حيث كان باستطاعتهم أن يذهبوا من دون ان يقعوا، تحت نظر الخادم. كانت الأرض عارية، مزدحمة بعارضين عتيقين أو ثلاثة وبألواح وضعت عليها أدوات ضخمة، وزجاجات فارغة وأعداد قديمة من مجلاّت أجنبية. وعندما كانوا يجلسون على الأرض المظلمة والرطبة، كان البرد يسري في الحال إلى أقفيتهم.

وبعد ساعة من المطاردة، اكتشفوا قطاً صغيراً ضائعاً كان يموء مواء ضعيفاً، قطاً صغيراً لطيفاً ذا عينين بلون أسمر ذهبيّ، من الضآلة بحيث استطاع نوبورو أن يمسكه براحته.

وإذ كانوا يعرقون بغزارة، خلعوا ملابسهم كلّ بدوره فوق مغسلة في زاوية من المرآب. في هذه الأثناء كان القطّ ينتقل من يد إلى أخرى.

وأحس نوبورو بقلب القط ينبض على صدره العاري والمبلّل. كما لو أنه كان قد سرق قليلاً من الخلاصة السعيدة والحرة لضوء الشمس الصيفية الكثيف.

- كيف سنتأتى للأمر؟
- هناك خشبة ضخمة، فإذا ضربناه بها، قتلناه. هذا أمر بسيط.

وأمر القائد: رقم ٣، هيّا.

كان ذلك اختياراً لقلب نوبورو البارد برودة القطب الشمالي، كان قد استحمّ للتوّ، ومع ذلك، فإن عرقاً غزيراً تدفّق منه. لقد مرّت نيّة القتل في صدره كما تهبّ نسمة البحر في الصباح. وأحسّ في صدره ما يشبه المجفّف ذا الأنابيب المعدنية الذي تجفّ عليه القمصان البيض في الشمس. عما قليل ستخفق القمصان في الريح، وإذ ذاك سيكون عليه ان يقتل، محطماً السلسلة التي لا نهاية لها لنواهي المجتمع البغيضة.

أمسك نوبورو القطّ الصغير من رأسه ونهض. كان القطّ يتدلّى، أخرس، عند أطراف أصابعه. وكبت شعوراً بالشفقة ما لبث أن اضمحلّ كأنّها نافذة مضاءة يلحظها المرء من قطار سريع. كان القائد يدّعي أن أعمالاً كهذه كانت ضرورية لسدّ فراغات العالم الكبيرة. وكان يقول أن لا شيء آخر يستطيع ان يبلغه، فالقتل سيملأ هذه الفراغات كما يملأ شِقٌّ مرآةً. ومن ثم فسيصبحون أسياد الوجود.

وصمّم نوبورو، فأمسك بالقطّ ولوّح به من فوق رأسه ثم قذفه بقوة على قطعة الخشب. وطار الشيء الصغير الناعم والدافىء الذي كان بين يديه في الهواء بأقصى سرعة. وظلّ الإحساس بالشعر المفرّى بين أصابعه.

أمر القائد: «إنه لم يمت بعد. أعِدْ!»

ظل الأولاد الخمسة الواقفون هنا وهناك في ظلّ المرآب، وهم ما يزالون عراة، ظلوا بلا حراك، وعيونهم تلمع.

ما كان نوبورو يرفعه بإصبعيه لم يكن بعد قطاً، كانت قوّة عظيمة قد انبعثت فيه حتى أطراف أصابعه، ولم يكن عليه إلا أن يرفع في الهواء قوساً ساكنة ضربها عدة مرات على الخشب. كان يحسّ نفسه مارداً. مرة واحدة فقط، في الضربة الثانية، أطلق القطّ الصغير مواءً مخنوقاً.

وكان القطّ الصغير قد عاود القفز عن الأرض مرة أخيرة. كانت قدماه الخلفيّتان المتشابكتان ترسمان دوائر كبيرة رخوة على الأرض الوسخة ثم تهمدان. وكان الصبية مبتهجين ببقع الدم وهي تلطخ الأرض في أمكنة متعدّدة.

وكما لو أنه كان قد غطّس نظره في بئر عميقة، نظر نوبورو إلى الجسم الساقط في ثقب الموت الصغير. شعر في الطريقة التي كان يقرّب بها وجهه من القطّ أنّ العذوبة المرعبة التي كان قد دلّل عليها بشجاعة، كانت عذوبة من الممكن أن تؤخذ على أنها طيبة. كان دم أسود يسيل من ذنب القطّ وأنفه. وكان لسانه مطوياً بتشنّج، ملتصقاً بالحلق.

«اقترب»، هذه المرة، أنا الذي سأقوم بالعملية. كان القائد، في إحدى اللحظات، قد لبس زوجاً من قفازات مطاطية. انحنى على جثة

القطّ، وفي يده مقصّ برّاق، مقصّ كان بريقه البارد يلتمع في غبش المرآب، مقصّ رائع في وقاره البارد المثقّف. ولم يكن نوبورو يستطيع أن يتخيّل للقائد سلاحاً أكثر ملاءمة.

أمسك القائد بيد القطّ الصغير من الرقبة، وغرز جلد الصدر بحدّ المقص وفتح حزّة طويلة حتى العنق. ثم أبعد الجلد بيديه على الجنبين فبدا الداخل يلتمع كاللبّ الأبيض، كنبتة البامبو التي سبق أن انتزعت قشارتها. كان عنق القطّ المنتوف، الموضوع بلطف على الأرض، يبدو وكأنه مقنّع بقناع قطّ.

لم يكن القطّ إلا مظهراً. كانت الحياة قد استعارت ببساطة مظهر قطّ. الداخل.. تحت السطح يكمن داخلٌ. يندسّ بلا تعبير، وجود داخلي ساكن، بياض لمّاع على انسجام كامل مع نوبورو والآخرين، وكان باستطاعتهم ان يحسّوا داخلهم الخاص معقّداً، أسود بلون الحبر، يقترب منه ويغطيه كالمراكب تتنقل على الماء.

والحقيقة أنه، في هذه اللحظة، لم يعد الصبية والقطّ، أو بالأحرى ما سبق أن كان قطّاً، إلا كلاً واحداً، وتدريجيّاً عُرّيت الأدمة الجنينية. كانت جميلة كاللؤلؤ، ولم تكن منفّرة قط. وكان باستطاعتهم الآن أن يشاهدوا من خلال الأضلاع ويلاحظوا تحت الثرب الدفعة الحارّة الحميمية للأحشاء.

قال القائد وهو يبسط الجلد بيديه اللتين تلبسان قفّازي المطّاط: «ما رأيكم بما تشاهدون؟ أليس هو عارياً أكثر مما ينبغي؟ إنه من غير اللائق ان يكون عارياً إلى هذا الحد.

قال رقم ٢: «لا يمكن، في الحقيقة أن يكون أكثر عرياً بعدُ»

كان نوبورو يحاول أن يقارن بين هذه الجثّة التي تُعرض عارية

بهذا الشكل للعالم، مع الأشكال التي ليس ثمة أكثر منها عرياً للرجل ولأمه الليلة الماضية، ولكنها لم تكن عارية بما فيه الكفاية بالمقارنة. كانت ما تزال مغطاة في جلد. حتى الصفّارة المؤثّرة والعالم الواسع الذي كانت تستدعيه ما كان بإمكانها أن ينفذا بمثل هذا القدر من العمق: فالقطّ المسلوخ كان في حركات أحشائه على اتصال أكثر مباشرة وأكثر ارتعاشاً مع قلب العالم.

سأل نوبور « والآن ماذا سيحدث؟ » وهو يسدّ أنفه بمنديله ذي السدادة ليحمي نفسه من الرائحة المثيرة للقيء التي كانت تتصاعد، متنفّساً بمشقّة من فمه.

لم يعد الدم يسيل تقريباً من القطّ. وقد قطع القائد بمقصّه غطاء رقيقاً واكتشف كبداً ضخماً أحمر ضارباً إلى السواد. ثم نزع المصارين الدقيقة ذات البياض الناصع ولفّها على الأرض. صعد بخار ولفّ القفّازين المطاطيين، ثم قصّ الكولون إلى شرائح وأخرج منها سائلاً بلون الحامض عرضه على الصبيان: « هذا يعطي الشعور بقصّ قطعة فانيلا ».

وفيما كان نوبورو يراقب جميع هذه التفاصيل بانتباه مدقّق، كان يترك فكره يتيه في الحلم.

كان بؤبؤا القطّ الميّت بنفسجيّين، مبقّعين بالأبيض. وكان فمه المفتوح مليئاً بالدم المتخثّر. وكان لسانه المنطوي مرئيّاً بين الأنياب.

وعندما قطع المقصّ المصفرّ من الشحم الأضلاع، سمعها نوبورو وهي تطقطق. نظر إلى القائد بأكبر قدر من الانتباه وهو ينقّب في التجويف البطني ثم يبعد الشغاف الصغير ويخرج قلباً صغيراً بيضوي الشكل. وعندما ضغط القلب بين أصابعه، انبجس الدم الذي كان باقياً فيه على قفازيه فصبغهما حتى أطراف الأصابع.

« ماذا يجري هنا في الحقيقة؟ » كان نوبورو قد احتمل التجربة حتى آخرها. والآن كان فكره نصف المغلّف في حلم يرى من جديد الأحشاء الحارّة المبعثرة والدم المكدّس في البطن المفرّغ ويجد في النشوة الكبيرة الكئيبة لروح القطّ الميت كمالاً وروعة. وصارت الكبد اللدنة أمام الجثة، شبه جزيرة لذيذة، والقلب المعصور شمساً صغيرة، والمصارين الملتفّة صخرة بيضاء، والدم في البطن مياهاً دافئة لبحر استوائي. كان الموت قد حوّل القطّ الصغير إلى عالم كامل، مستقلّ.

« إنني أنا الذي قتلت » امتدّت يد بعيدة إلى نوبورو في حلمه ومنحته شهادة تقدير: « أستطيع أن أفعل كل شيء، مهما كان مريعاً ».

وخلع القائد قفازي المطاط اللذين كانا يصرّان ووضع يداً بيضاء مدهشة على كتف نوبورو.

« لقد عملتَ جيّداً. أعتقد أنك تستطيع أن تقول إن هذا قد جعل منك رجلاً حقيقياً. وأيّاً كان الأمر، يكفي رؤية هذا الدم ليعطيك الإحساس بأنك شجاع ».

الفصل السادس

لقد كان من سوء الطالع الالتقاء بريوجي عند العودة من منزل القائد، بعد أن كانوا قد دفنوا القط. كان نوبورو قد غسل يديه بعناية. ولكن ألم يكن ثمة دم في مكان ما آخر، على جسده، أو على ثيابه؟ ألم تكن رائحة القطّ الميت عالقة بثيابه؟ وماذا لو خانته عيناه كما تخون عينا مجرم تصادفان شخصاً معروفاً تماماً بعد جريمته؟ لقد كان نوبورو مضطرب الفكر تجاه هذا الأمر.

وسيكون الأمر شنيعاً لو علمت أمه أنه كان موجوداً أمام المنتزه في الساعة التي كانت تفترض فيها أنه كان يسبح في كماكورا مع جماعة من الأصدقاء.

وترك نوبورو لنفسه أن يفاجأ، فقد كان خائفاً بعض الشيء وقرر أن كل شيء كان غلطة ريوجي.

تفرّق باقي الصبية بعد إلقاء كلمات وداع مختصرة، تاركين ريوجي ونوبورو وحدهما على الطريق الحارّة التي لم يكن يمر عليها المشاة ولا السيارات. كانا يلقيان على الأرض ظليهما الطويلين عند الساعة الرابعة بعد الظهر.

كان نوبورو خجلاً حتى الموت. كان يفكر في إيجاد الفرصة ليقدم ريوجي للقائد في وقت الفراغ. فلو أن الظروف كانت مناسبة، لكان من الممكن أن يتوّج التقديمُ بالنجاح. ولاستطاع القائد ان يتقبّل بالرغم منه أن يكون ريوجي بطلاً، ولكان شرف نوبورو لم يمسّ.

ولكن عند هذا اللقاء المنكود وغير المنتظر، فإن ضابط صف البحرية كان قد تقدّم بقميص قصير الأحكام، مبلّل كله بالماء. وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً، فقد كان يتوجّه إلى نوبورو بابتسامة حقيرة وغير مجدية. كانت الابتسامة غير مجدية بشكل تام. كانت شتيمة لأنها كانت بقصد تملّق نوبورو كطفل؛ بالإضافة إلى ذلك، فإنها حوّلت ريوجي نفسه الى كاريكاتور فاحش لرجل بالغ يحب الصغار. هذه الابتسامة المضيئة المصطنعة أكثر مما ينبغي، هذه الابتسامة الموجّهة لولد، كانت لا مجدية ووقحة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن ريوجي كان قد قال أشياء ما كان ينبغي أن يقولها أبداً «اوه! أي لقاء سعيد! هل أخذت حماماً لذيذاً؟» وعندما كان نوبورو قد لاحظ بهيئةٍ مستنكرة القميص المبتل، كان عليه أن يجيب: «اوه! ذلك الأمر! لقد أنقذت امرأة كانت قد رمت نفسها من أعلى المرفأ. إنها المرة الثالثة التي كان عليّ فيها أن أنزل الماء من دون أن أخلع ثيابي».

ولكنه لم يكن ليقول شيئاً كهذا. وبدلاً من ذلك، كان قد قدّم هذا الشرح المضحك: «لقد أخذت حماماً صغيراً عند نبع ماء الشرب هناك في المنتزه» كل هذا مع هذه البسمة اللامجدية.

«اعتقد أن هذا الرجل يريد ان يتصرّف بطريقة أحبه فيها. فبملاطفة صغير امرأة جديدة، سيكون من السهل أن أؤمن لنفسي عطايا حب هذه الأخيرة!» على هذا النحو كان نوبورو يفكر.

وأخذ كلاهما يمشي في اتجاه البيت. كان ريوجي، الذي لم يكن بعد أمامه سوى ساعتين، سعيداً ان يلتقي أحداً يستطيع معه أن يُمضي الوقت.

قال ريوجي وهو يمشي: لقد كان اللقاء مفاجئاً لنا، نحن الاثنين.

هذه الإشارة المسارعة في الود أزعجت نوبورو، ولكنها سهّلت طلباً تمسّك به:

ـ أرجوك، لا تقل لأمي إنني كنت قد التقيت بك على هذا الطريق!

ـ «حسناً، حسناً».

شكل سرور البحّار باحتفاظه بسرّ وابتسامته المطمئنة وقبوله السريع خيبة أمل لنوبورو. كان بإمكان ريوجي ان يوحي له، على الأقل، بشيء من الخشية!

ـ «من المفروض أن أكون عائداً من الشاطىء.. انتظر قليلاً»

قفز نوبورو على كومة من الرمل مرصودة لأشغال الطريق، خلع حذاء الرياضة وأخذ يفرك قدميه وساقيه بقبضات من الرمل، لم يكن ريوجي قد رأى قط مثل هذه الرشاقة عند هذا الصبي. وإذ عرف نوبورو أنه مُراقب، فقد أخذ يفرك ربلة الساقين حتى الوركين. وعندما سرّ انتعل حذاءه من دون ان ينفضه ليخرج منه الرمل ثم استدار نحو ريوجي. قال: انظر! وهو يشير إلى وركه العرِق، والرمل يلتصق ويرسم غيوماً كالتي يرسمها الفنانون:

ـ إلى أين أنت ذاهب الآن؟

ـ سأعود الى البيت. ألا تأتي معي يا سيد تسوكازاكي؟ إن الصالون مبرّد والجوّ فيه رطب جدًّا.

حين وصلا إلى الصالون، أدارا مكيّف الهواء، وجلس ريوجي باسترخاء على كرسي من أسل الهند. وبعد عودة نوبورو من الحمام حيث كان قد ذهب على مضض ليغسل ساقيه بناءً على أمر المربية، تمدّد على الكرسي الطويل قرب النافذة.

أحضرت المربية شراباً منعشاً واستأنفت التوبيخ: « سأقول للماما أنك تسيء الجلوس أمام الزوّار ».

توسل نوبورو ريوجي بعينيه..

« لا بأس. إنه يبدو متعباً لأنه سبح طوال النهار ».

ـ حقاً؟ ومع ذلك، إنه مزعج أكثر مما ينبغي.

لم تكن المربية حتماً تشعر بالود تجاه ريوجي، وكان يبدو أنها تنقل استياءها إلى نوبورو بتوبيخه. ذهبت على مهل، مستاءة، وهي تحرّك ذات اليمين وذات الشمال ردفيها الثقيلين. ووحّدهما دفاع ريوجي في ميثاق صامت. جرع نوبورو دفعة واحدة عصير الفاكهة الأصفر. ثم التفت نحو البحّار، ولأول مرة، كانت عيناه مبتسمتين.

ـ « إنني أعرف كل ما يتعلق بالمراكب ».

ـ سوف تلقّن رجال الاختصاص دروساً؟

ـ لا أحب أنواع التملق ». رفع نوبورو رأس الوسادة التي كانت أمه قد طرزتها. وللحظة، كانت عيناه غاضبتين. « في أي ساعة، يا سيدي تسوكازاكي ستأخذ نوبة الحراسة؟ »

ـ كضابط صفّ من الساعة الثانية عشرة إلى السادسة عشرة. ومن ساعة الصفر حتى الرابعة. من أجل ذلك يسمونها نوبة اللصوص.

ـ هذا مسلٍّ! نوبة اللصوص! » هذه المرة ضحك نوبورو بصدق وانحنى ظهره كقوس. « كم رجلاً يتولّون الحراسة معاً؟ »

ـ ضابط الخدمة ورجلان من رجال الدفّة.

ـ أثناء العاصفة، كم مرة يميل المركب على جانبيه؟

ـ ثلاثين حتى أربعين درجة عندما يكون الجو عاطلاً جداً. إن

حاول صعود منحدر بأربعين درجة: هذا يخلق لديك الشعور بتسلق حائط، هذا فظيع. هناك لحظات حيث..» كان ريوجي ينظر في الفراغ وهو يفتش عن كلماته. ورأى نوبورو في عينيه أمواج المحيط الهائج. وأحس بوجع خفيف في قلبه. كان في حالة نشوة.

- : سيد تسوكازاكي، ألا يؤمّن مركبك خدمة منتظمة؟

قال ريوجي على مضض: لا، لا. كان كبرياؤه مجروحاً بعض الشيء.

- افترض أن معظم الرحلات تتم بين اليابان والصين ثم الهند، أليس كذلك؟

- أنت تعرف كل شيء. يحدث لنا أيضاً أن ننقل قمحاً من أوستراليا إلى انكلترا.

كانت أسئلة نوبورو تتلاحق.. وكان فضوله يقفز من موضوع إلى آخر.

قل لي. ما هي الحمولة الرئيسية إلى الفيليبين؟

- لا بدّ أنها من الخشب.

- وإلى مالايا؟

- على الأرجح من الحديد.. هل تعرف ما هي الحمولة الرئيسية المنقولة من كوبا؟

- أعرف. إنه حتماً السكر.. إنك تسخر مني. قل لي، يا سيد تسوكازاكي، هل ذهبت يوماً إلى جزر الانتيل؟

- أجل، ولكن مرة واحدة فقط.

- هل ذهبت إلى هاييتي؟

- أجل.

ـ هذا جيّد. أي نوع من الأشجار هناك؟

ـ أشجار؟

ـ أجل، أشجار كالتي تغرس على طول الطرق.

ـ آه! النخيل خصوصاً.. ثم إن الجبال مليئة بما يُسمى العندم الهندي. ثم أشجار الحرير. لا أذكر إن كانت العندم الهندي يشبه شجر الحرير.. عندما تزهر، تبدو كحريق. وعندما تصبح السماء سوداء بلون الحبر تماماً قبل عاصفة المساء، تتلوّن بأكثر الألوان غرابة. لم يسبق لي قط أن رأيت في أي مكان آخر أزهاراً كتلك الأزهار.

كان ريوجي يود أن يتحدّث عن تعلّقه السحري بغابة نخيل طاووسية، ولكنه لم يكن يدري كيف يمكن أن يروي قصة بهذه الطبيعة لولد. وفي فكره، كانت تعاوده ذكرى غروب الشمس على الخليج (العربي) في وميض جدير بآخر نهار العالم، ومداعبة نسيم البحر على خده عندما كان المركب في المرساة، كذلك هبوط البارومتر المغيظ عند اقتراب التيفون (إعصار استوائي مدمر). كان منفعلاً من جديد بالقوة الشيطانية للبحر وهي تؤثّر بلا انقطاع على مزاجه وأهوائه.

وكما لو أنه كان يشاهد على التو أمواج العواصف لدقيقة خلت، كان نوبورو يقرأ في عيني ريوجي الظواهر المستحضرة إلى ذهن هذا الأخير. وإذ غدا محاطاً برؤى البلاد البعيدة وبلغة البحّارة، كان نوبورو يحسّ نفسه محمولاً إلى الخليج المكسيكي والمحيط الهندي والخليج (العربي)، وكانت هذه السفريات ممكنة بفضل هذا الضابط صفّ في البحرية. كان هذا البحّار أخيراً الوسيط الضروري لمخيلته. كم كان قد انتظره طويلاً. وعند ذروة الافتتان، أغمض نوبورو بعزم

عينيه. فكر ريوجي «نعس الصبي» ولم تخطر بباله هذه الفكرة حتى عاود نوبورو فتح عينيه وتحقّق بفرح أن ضابط البحرية كان في الواقع حاضراً.

كان محرّك جهاز التكييف ذو الحصانين يهدر. كانت الغرفة الآن منعشة تماماً. وكان قميص ريوجي قد جفّ كلّه.. شبك يديه القويّتين خلف رأسه.. وأحدثت أضلاع أسل الهند برداً عند أصابعه.

جالت عيناه في الغرفة المظلمة واندهشتا لرؤية الساعة المذهبة الموضوعة على برقع المدخنة. والنجفة من الكريستال المنحوت التي كانت تتدلى من أعلى السقف، والمزهريات الأنيقة من الجاد المرصوفة بعناية على رف، وجميع هذه الأشياء الدقيقة، الجامدة. كان يتساءل أية قوة خفية كانت تحول دون ان تتحرّك الغرفة. وحتى البارحة، لم يكن لهذه الأشياء أي معنى بالنسبة له.. وغداً سيرحل. ومع ذلك، كان ثمة رباط بينها وبينه اللحظة. كان هذا الرباط يأتي من نظرة متبادلة مع امرأة، إشارة من أعماق الجسد، من القوة الوحشية للرجل الذي كانه. وكان يكفيه معرفة ذلك حتى يمتلئ بشعور اللغز، كما كان يحدث له عندما كان يشاهد مركباً مجهولاً وسط البحر. وبالرغم من أن جسده الخاص به هو الذي كان قد خلق هذا الوضع، فإن الطابع اللاحقيقي والكئيب لهذا الوضع، بالنسبة لما كان يتعلق بهذه الغرفة، كان يجعله يرتجف. «ما الذي أفعله هنا بعد ظهر هذا اليوم الصيفي؟ من أكون اذن، أنا الجالس من دون أي عمل، الى جانب ابن امرأة كنت قد امتلكتها الليلة الماضية؟ لقد كانت لدي حتى الأمس أغنية مفضلة: «قررت أن أصبح بحّاراً»، وكانت الدموع التي دفعتني إلى ذرفها وحساب في البنك بمليوني ين، كفيلة بتأكيد واقعية وجودي.. والآن..»

كان نوبور يحدس بأن يكون ريوجي غارقاً في هذا الفراغ.. لم

يكن قد لاحظ أن البحار لم يعد ينظر إلى المياه.. كان نقص النوم وتتابع الصدمات قد أنهكاه. كانت عيناه، اللتان كان قد قال للمربية أن الماء المالح كان قد جعلها تحتقنان بالدم، قد بدأتا تنغلقان. وفي اللحظة التي كان ينزلق فيها إلى النوم، كان عقله يجتر الوجوه المليئة بضوء واقع مطلق، والتي كانت قد بدت له منذ الليلة الأخيرة خلال فترات مضت في عالم جامد إلى الأبد، قاحل ومضجر.

رأى تلك الأشكال كمطرزات من ذهب مدهشة تُبرز، على قماش موحّد السواد، البحّار العاري متوجّهاً نحو الضوء ليواجه جنّيّة البحر، القناع الرزين للقطّ الميت كاشفاً أسنانه، قلبه الأحمر... كل ذلك على شكل ماهيات فاخرة وحقيقية. وانطلاقاً منذ ذلك الوقت كان ريوجي هو أيضاً بطلاً حقيقياً.. الحوادث فوق البحر وتحته... وكان نوبورو يحس نفسه غارقاً في النعاس. كان يفكر: « السعادة! سعادة تفوق كل وصف... » وسقط في النعاس.

نظر ريوجي إلى ساعته: حان وقت الذهاب. طرق باب المطبخ طرقاً خفيفاً ونادى المربية.

- « لقد نام.

- هذا حسن منه.

- من الممكن أن يصاب بالزكام. لو كان بالإمكان الحصول على غطاء أو أي شيء آخر...

- سأحضر له واحداً من الطابق الأول.

- حسناً. سأذهب.

- افترض أنك ستعود مساء؟

سقطت ابتسامة ساذجة من جفون المربية المثقلة عندما رفعت نظرة عابرة نحو ريوجي.

الفصل السابع

منذ أقدم العصور كانت النساء يرددن كلمات القبول المستسلم لسلطة خط الأفق، والإجلال الأعمى لهذا الخط اللازوردي، كلمات تنطق بها أكثر النساء غروراً، تماماً كما تنطق بها البغايا في أوقات حزنهن، ورجائهن العابث، وتوقهن للحرية والتي تتوضّح بهذه الكلمات: «لن يطلع الغد حتى تكون قد تركتني».

ولكن فوزاكو كانت عازمة على ان لا تنطق بمثل هذه الكلمات. ومع ذلك، كانت تعلم أن ريوجي سيسعى إلى أن يجعلها تنطق بها. كانت تعلم أنه يلعب كبرياءه، كبرياء رجل بسيط في مقابل دموع امرأة تنتحب عند الوداع. وأيّ رجل بسيط كان! كان حديثهما في المنتزه الليلة الماضية دليلاً على ذلك، كان قد ضيّعها في جعلها تنتظر، بهيئته المتأمّلة، ملاحظات عميقة أو حتى بوحاً رومانتيكياً، ثم فجأة كان قد حدّثها عن الأوراق الخضراء التي شاهدها في مطبخ المرفأ، وعن حوادث حياته التافهة. وفي النهاية، وإذ وجد نفسه مشوّشاً في قصته بالذات، ترك لنفسه أن يسترسل في غناء رتيب لأغنية شعبية. ومع ذلك فقد كان يلذّ لفوزاكو أن تعلّم أن فكر ريوجي لم يكن فريسة أحلامه أو خياله، وأنه كان من نوعية شبيهة بنوعية الأثاث العتيق الصلب. لقد كانت فوزاكو بحاجة إلى ضمانة لأمنها.. فقد ظلت حافظة لنفسها وقتاً أطول مما ينبغي بتجنبها جميع المخاطر. ولكن الأفعال المفاجئة والخطرة التي كانت قد استسلمت لها منذ الليلة البارحة قد أخافتها.. وكان من الضروري بالنسبة لها ان يكون

شريكها من طبيعة بسيطة جداً، لقد كانت مقتنعة بأن ريوجي لن يخلق لها هموماً مالية.

حين ذهبا إلى مطعم في «باشادو» ليتناولا قطعة بفتيك اكتشفا مقهى صغيراً حديثاً جدّاً في حديقته نبعٌ ومصابيح حمراء وصفراء معلّقة فوق المدخل. وقررا أن يتناولا فيه مشروباً فاتحاً للشهيّة.

كان شراب النعناع المثلّج الذي طلبته فوزاكو مزيناً، لا يعرف المرء لماذا، بكرزة مع ذنبها، أخذت فوزاكو الثمرة بلطف بأسنانها ووضعت النواة في منفضة زجاجية.

كان الضوء الباقي في السماء والمنعكس بفضل نبع الحديقة يتسرّب خلال ستارة النافذة العريضة وينتشر في الغرفة الفارغة تقريباً من الزبائن.

ومن المرجح أنه، بسبب هذه الشعاعات الملوّنة برهافة، وجد ريوجي البزرة الصغيرة الملساء ذات اللون الوردي الدقيق التي كانت قد بدأت تجف، وجدها جذابة إلى حد لانهائي. أمسكها فجأة ووضعها في فمه. أفلتت صرخة دهشة من شفتي فوزاكو وأخذت تضحك. لم تكن قد عرفت قط لحظة بمثل هذه الطمأنينة الجسديّة.

بعد العشاء اختار كلاهما للنزهة شوارع قليلة الارتياد. كانا يتنزهان بصمت، سجينيْ حنان كانت تسحره ليلة صيف، وأصابعهما متشابكة. ملّست فوزاكو شعرها بيدها الحرة. بعد ظهر هذا اليوم كانت قد ترقّبت وقت استراحة في المحل لتسرع إلى الحلاق وتصلح بسرعة شعرها. كانت فوزاكو قد احمرّت عندما كانت تقول المصففة الشعر «لا أريد زيتاً، إن سمحت»، بينما كانت في العادة تستعمل قليلاً من الزيت المعطّر. كانت مصففّة الشعر قد اندهشت. فإن شعر فوزاكو وكل جسمها كانا يوشكان أن يمزجا رائحتها بعفونة طرقات

ليلة صيف. إن أصابع الرجل الغليظة التي كانت متشابكة بأصابع فوزاكو ستغوص غداً تحت خط الأفق. كان هذا لا يُصدَّق كأكذوبة مضحكة.

قالت فوزاكو فجأة وهي تمرّ أمام السياج المذهّب لشركة أصحاب المشاتل: « من أجلك، سقطت إلى أسفل الدرك ».

قال ريوجي مندهشاً وهو يتوقف: « كيف ذلك؟ »

كانت فوزاكو تنظر، من خلال السياج المذهّب، الى الأشجار والشجيرات وأدغال الورود المضمومة في المشتل. كان الليل بهياً، وكان السياج الغزير متداخلاً بطريقة تفتقر إلى الطبعيّة، وفجأة انتابها الإحساس بأن أفكارها الحميمة كانت مكشوفة إلى حد جعلتها في ضيق.

كرّر ريوجي: « كيف ذلك؟ »

لم تجب فوزاكو. لقد كانت، كصاحبة بيت محترم جداً، بحاجة إلى أن تحتج ضد نمط من حياة كانت تبدأ بكلمات وداع لرجل، نمط حياة تقليدية عند بغيّ في أي مرفأ كان، ولكن ذلك لم يكن إلا بمقدار خطوة خارج الحياة التي ترتكز على قول: « سوف تتركني غداً، أليس كذلك؟ »

كانت حياة متوحّدة على سفينة قد أعطت ريوجي العادة في أن لا يتشبث في تعميق ما لم يكن يفهمه. وكان السؤال الذي سبق أن طرحه: « كيف ذلك؟ » كجواب على تذمّر فوزاكو قد اتخذ منذ ذلك الحين مظهر التنكيد. كانت فكرة الانفصال عن هذه المرأة في الغد مؤلمة، ولكنه كان من حيث المبدأ يكبح مثل هذه العذابات، مبدأ يتلخّص في ترديد كان يعاوده في أحلامه: « إن الرجل يذهب

من أجل القضية الكبرى، والمرأة تبقى في الخلف». ومع ذلـك، فـإن ريوجي كان يعرف أكثر من أي شـخص آخر أنه لم تكن هناك قضية كبرى في بحر. في البحر كانت هناك فقط نوبـات حـراسـة تتتابـع ليلاً نهاراً، ووجود رقيب، وهموم سجين مبتذلة.

ثم برقيات التنبيه المتعدّدة: «تعرضت حديثاً مراكب تابعة لشركتنا إلى سلسلة من الاصطدامات في قنال كيجيا. نرجو منكم أن تكونوا في أقصى درجات التيقظ في الأقنية الضيّقة وعند مدخل الموافيء. بسبب الوضع الراهن لشركتنا نطلب منكم مضاعفة جهودكم لتجنب جميع الحوادث المشابهة. الموقّع: مدير الإبحار». والكليشيه: «بسبب الوضع الراهن للشركة» كانت مدرجة في جميع البرقيات.

وكل يوم ستسجل مفكرة النوتي (مدير دفة السفينة) الوقت، سرعة الهواء، الضغط الجوي، الحرارة، الرطوبة، السرعة، المسافة التي قُطِعت، دورات الآلات في الدقيقة، مذكرة تسجل بـدقـة نـزوات البحر بدلاً من أن تسجّل تقلّبات مزاج الرجال.

وفي مطعم الموظفين، ترقص الدمى التقليدية رقصة اغتراف ماء البحر، وخمس نوافذ، وعلى الحائط خريطة للعالم. كـانـت زجـاجـة مَرَقَة [1] تتدلى من السقف عند طرف سَيْر جلدي، وأحيـانـاً كـانـت شعاعات شمس تدخل من النوافذ المستديرة وتضرب الزجاجة كما لو أنها تلامس السائل الأسمر ثم تهرب من جديد. وكانت قائمة طعام الفطور ملصوقة على حائط المطبخ:

شورباء بالميزو [2] مع باذنجان وتوفو [3]

---

(١) زجاجة SHOYU وقعة يضيفها كل شخص على طعامه.

(٢) عجينة مصنوعة من القمح والأرز، والفاصوليا والملح.

(٣) مجمّدة الفاصوليا المنقوعة والمهروسة.

شرائح لفت مجفّفة.

بصل نيء، خل، أرز.

كانت قائمة الفطور غريبة وكانت تستهل دائماً بشوربة مركّزة.

كانت الآلات، بأنابيبها المتشابكة، ترسل من غرفتها المطلية بالأخضر هديراً مسرعاً كهدير مريض خطر فريسة حرارة مرتفعة.

غداً سيكون هذا كله من جديد حياة ريوجي. كانا قد توقفا أمام باب صغير عند حاجز المشتل. كانت كتف ريوجي المسندة إلى الباب المشبّك تدفعه بخفة، لم تكن مغلقة ففتح بلطف.

«اوه! يمكننا أن ندخل!» قالت فوزاكو وكانت عيناها تلمعان كعيني طفل.

ألقيا نظرة سريعة نحو نافذة قمرة الحارس المضاءة، وانزلقا بعجلة في هده الغابة الكثيفة المصنوعة بيد رجل والتي يكاد المرء لا يستطيع ان يضع قدمه فيها. وأخذا بيد بعضهما وشقا تلمساً طريقاً بين الدغل الذي كان يصل إلى علو كتفيهما، دافعين أغصان أشجار الورود المليئة بالشوك، داعسين بأقدامهما أزهاراً حتى زاوية الحديقة المزروعة بنباتات استوائية، مزدحمة بالسحلبيات، وأشجار الموز والكاوتشوك واليوكيات وبجميع أصناف النخيل.

تخيل ريوجي، وهو ينظر إلى فوزاكو بثوبها الأبيض، أن لقاءهما [1] الأول لا بد من أن يكون قد تمّ في غابة استوائية. وإذ أبعد فجأة الأوراق ذات الأشواك التي كانت تهدّد عينيهما، تعانقا بعفوية.

ومن طنين البعوضات الأصم كانت ترتفع رائحة عطر فوزاكو.

---

(١) في حياة سابقة.

كان ريوجي قد اضطرب اضطراباً عميقاً ففقد كل مفهوم للساعة والمكان.

وفي الأبعد، وفيما وراء السياج الدقيق، كانت مصابيح صغيرة حمراء تتلألأ بالنيون كأسماك حمراء؛ ومن وقت إلى آخر، كان ضوء مصابيح سيارة تكنس ظلال غابتها السرية. وكان وميض اللافتة الحمراء بالنيون لمقهى ذات طراز غربي يجتاز الطريق ويضرب وجه فوزاكو المظلل بسقف النخيل، ملوناً بلون وردي محتشم خدّيها الشاحبين ومسوداً شفتيها الحمراوين.

تعانق ريوجي وفوزاكو في قبلة طويلة أغرقتهما في غبطة كبيرة، لم تكن فوزاكو تفكر إلا في فراق الغد. كانت، وهي تداعب وجنتي ريوجي، وتلمس الأمكنة الحارة والمخملية التي كان قد حلقها، وتتنشق رائحة جسده التي كانت ترتفع من صدره المضطرب، كانت تحسّ جميع أوتار جسده التي كانت تقول لها وداعاً. وكانت معانقة ريوجي الصلبة والمتشنجة تؤكّد لها بوضوح كم كان حضورها بالنسبة له غالياً، وبالنسبة لريوجي كانت هذه القبلة هي الموت، وبالتدقيق، الموت في حب كان قد حلم به.. لذة شفتيها، وفمها الأحمر إلى حد كان يستطيع معه أن يراه في الظلام بعينين مغمضتين، رطب إلى ما لا نهاية، بحر دافىء من المرجان، لسانه يتحرك بلا راحة كفطر: في خضمّ هذه النشوة الهائلة كان هناك شيء يتعلق مباشرة بالموت. كان يقدر تماماً واقع أنه سيتركها في الغد. ومع ذلك، فقد كان مستعداً أن يموت سعيداً من أجلها. كانت فكرة الموت تستيقظ في ذهنه.

في هذه اللحظة، ارتفع أزيز صفّارة بعيدة أصم من الرصيف المركزي وملأ الحديقة. كان صداها مبهماً إلى حد كان من الممكن أن

يفلت من أي أذن أخرى غير أذن بحّار. « هل هو مركب يبحر في هذه الساعة بالذات؟ ولكي يكون قد انتهى تفريغه، كيف استطاعوا ان يفعلوا ذلك؟ إلى أية شركة يعود إذن هذا المركب؟ » هذه الفكرة قطعت سحر القبلة، ففتح عينيه. وأحس أنّ الصفّارة كانت توقظ فيه هوسه المجهول من الجميع « للقضية الكبرى » ولكنه ربما لم يكن هنا إلا اسماً آخر للدلالة على شمس الاستواء.

انتزع ريوجي نفسه من شفتي فوزاكو وأخذ ينبش بعصبيّة في جيب سترته، كانت تنتظر.. وسمعت خشخشة ورقة وأخرج سيكارة ملتوية حملها إلى شفتيه، ولكن فوزاكو انتزعت بغضب القدّاحة التي كان يمسكها في يده. انحنى نحوها. قالت فوزاكو: « ليس لدي النية في أن أشعل لك ناراً ». طقطقة معدنية خفيفة، وانبثق اللهب وانعكس في عينيها الجامدتين في الوقت الذي قرّبته من عثقول نخيل قنّب مجفف، ولكن النار لم تشتعل. كان ريوجي مذعوراً من حركة فوزاكو المصمّمة.

وأضاءت الشعلة الصغيرة وجنتي فوزاكو ورأى ريوجي سكباً من الدموع. وعندما فهمت أنه كان قد لاحظ ذلك، أطفأت القدّاحة. أخذها ريوجي من جديد بين ذراعيه، وإذ تحقق جيداً من أنها كانت تذرف دمعاً، أخذ هو أيضاً يبكي.

كان نوبورو ينتظر بغضب عودة أمه. حوالى الساعة العاشرة رنّ التلفون. وبعد لحظات، دخلت المربية غرفته لتنقل إليه رسالة.

« تقول ماما إنها لن تعود إلى البيت هذا المساء. ستعود غداً صباحاً للحظة لتغيير ملابسها قبل أن تذهب الى المتجر، هذا المساء عليك أن تعمل لوحدك تماماً، عندك فروض العطلة لتنهيها ».

وبقدر ما كان يستطيع ان يتذكر، فإن أمه لم يسبق لها قط أن أمضت الليل خارج بيتها. وبالنسبة له، لم يكن للحادث بحد ذاته أهمية ولكن وجهه احمرّ كلياً من الانزعاج والغيظ. كان قد سرّ في أن يرى أيضاً من خلال الثقب في الصوان، لا يدري أية تجلّيات، أية معجزات. لم يكن يشعر بالنعـاس على الإطلاق، بعد السبات الذي أخذه بعد الظهر.

كانت الطاولة مغطاة بالفروض التي كان عليه أن ينهيها قبل أن يبدأ الفصل الجديد، لم يكن أمامه سوى بضعة أيام. ولكن ريوجي سوف يذهب غداً وعندها ستساعده أمه من جديد، إلا إذا كانت مشغولة أكثر مما ينبغي، ولم تلق إلا نظرة عجلى على فروض ابنها. غير أنها لم تكن تستطيع أن تساعده إلا في اللغة اليابانية، والانكليزية والرسم. لم يسبق لها قط أن قدّمت له أيّ عون في العلوم الاجتماعية وكان يعرف أكثر منها في الرياضيات والعلوم، كيف يمكن لشخص ضعيف مثلها في الرياضيات أن يدير عملاً تجارياً.. لقد كانت على الأرجح تحت رحمة السيد شيبويا دائماً.

فتح نوبورو كتاباً مدرسياً تصفّح منه بضع صفحات، ولكن ذهنه لم يستطع ان يركّز على شيء. كان قلقاً أكثر مما ينبغي بسبب أن أمه وريوجي لن يكونا حتماً في البيت هذا الليل. نهض، جلس وانتهى بأن تسلّق غرفته الصغيرة. ماذا يستطيع ان يفعل لكي ينام؟ هل يذهب الى غرفة أمه وينظر الى الأضواء المشتعلة في أعلى صواري المراكب في المرفأ؟ كانت مصابيح بعض المراكب الحمراء تومض الليل كله. أو بالأحرى، كما في الليلة الماضية، ربما كان هناك مركب يبحر ويشغل صفّارته. من هنا سمع باب الغرفة المجاورة يفتح. ربما كانت أمه قد خدعته وعادت مع ريوجي. وكالعادة أسرع نحو الصوان وأخرج منه

درجاً من دون أن يحدث ضجّة ووضعه أرضاً. لقد كان ذلك كافياً لأن يجعله يرشح عرقاً.

وهذه المرة سمع طرقاً على بابه هو. على أي حال لم يكن يستطيع ان يترك الدرج يُشاهد في هذه الساعة من الليل وسط الغرفة. ذهب إلى الباب واستند عليه بكل قواه. هُزّت قبضة الباب بعنف مرتين أو ثلاث مرات.

« ماذا يجري؟ ألا يمكنني الدخول؟ » كان هذا هو صوت المربية، ماذا يجري؟ هل كل شيء على ما يرام؟ أطفىء النور ونم. ستدقّ الساعة الحادية عشرة ».

كان نوبورو ما يزال مستنداً على الباب، محتفظاً بصمت عنيد عندما وقع حدث غير منتظر. ثمة مفتاح قد أُدخل في ثقب القفل وبرم بقوة. وأقفل الباب بالقفل. لم يكن نوبورو قد فكّر أبداً أن المربية يمكن أن تملك مفتاحاً لغرفته. كان يفترض أن أمه كانت تحمل معها جميع المفاتيح عندما كانت تخرج.

كان نوبورو غاضباً والعرق يسيل من جبينه فجمع جميع قواه وبرم قبضة الباب ولكن الباب لم يفتح. وكان صوت وقع الأقدام الذي كانت تحدثه طقطقة حذاء المربية وهي تهبط السلّم تتلاشى شيئاً فشيئاً.

كان نوبورو قد أمل في أن يتمكّن من انتهاز هذه الفرصة الوحيدة بين ألف غيرها ليخرج في الخفاء، ويذهب ليهمس بكلمة السر عند نافذة القائد ليوقظه. ولكن الأمل كان قد خاب. كان يمقت الجنس البشري كله. ثم كتب طويلاً يومياته، وأشار فيها إلى اتهاماته ضد جرائم ريوجي.

اتّهامات مسجّلة ضد تسوكازاكي ريوجي:

١ ـ ابتسامته لي بطريقة حقيرة عندما التقى بي بعد ظهر هذا اليوم.

٢ ـ ارتداؤه قميصاً مبتلاً وشرحه بأنه كان قد أخذ دوشاً عند نبع ماء الشرب في الحديقة، تماماً كمتسكِّع.

٣ ـ قراره بطريقة تعسّفية قضاء الليل مع أمّي خارج البيت وتركه إياي على هذا النحو في عزلة فظيعة.

ولكن نوبورو، بعد أن فكّر، محى المقطع الثالث. كان هذا المقطع يتناقض حتماً مع المقطعين السابقين اللذين كان لهما طابع جمالي ومثالي وكانا بالتالي منسجمين مع الأحكام الموضوعية.. وكانت المشكلة المتضمّنة في المقطع الثالث الدليل على فقدان النضج لديه ولا يمكن أن تشكّل اتهاماً بالنسبة لريوجي.

ضغط نوبورو جبلاً من معجون الأسنان على فرشاته وفرك داخل فمه حتى أدمى لثته. ونظر إلى المرآة، وراقب في الرغوة ذات اللون الأخضر الباهت التي تغمر أسنانه اللامنتظمة ظهور أنيابه الطفولية والمسنّنة. كان يائساً، وكانت رائحة النعناع تطهّر غضبه.

تخلّص نوبورو من قميصه، ولبس منامته ونظر حوله. كان الدرج، وثيقة الإثبات ما يزال أرضاً، رفعه، وفوجىء بثقله الذي لم يكن قد خمّنه من قبل، وكان يهمّ بأن يعيده إلى مكانه عندما غيّر رأيه وأراحه على الأرض. وانزلق في الفتحة بالسهولة التي كانت العادة قد منحتها لجسده.

وفي لحظة رعب اعتقد نوبورو أن الثقب كان قد سُدّ، ولكنه بالتلمّس، تحقّق تحت أصابعه بأنه ما يزال موجوداً. ذلك أنه، بكل بساطة، لم يكن هنالك من نور كافٍ من الطرف الآخر ليكشف الثقب من النظرة الأولى.

وفي الحال ألصق نوبورو عينيه بالثقب، وأدرك أنه عندما كان الباب قد فتح، فإن المربية هي التي كانت قد دخلت لتغلق جميع الستائر. وركّز طويلاً بؤبؤيه وشاهد الضوء الشاحب لسريري النحاس المستوردين من «نوفيل ـ أورليان»: كان ذلك النور يلاحظ بمشقّة.

كان مجمل الغرفة أسود كسواد داخل تابوت، وكانت الغرفة مليئة ببقايا الحرارة المحمومة لبعد الظهر التي تكدّست فيها. والعتمة التي كانت تتراوح في كثافتها حسب الزوايا كانت تحتوي على جزئيات الشيء الأكثر عتمة في العالم والتي لم يكن نوبورو قد رآها بعد.

الفصل الثامن

قضيا الليل في فندق صغير في حي المرافئ. كانت فوزاكو قد خافت أن تُعرف في أحد الفنادق الكبيرة في يوكوهاما. كانت قد مرّت أمام هذا المبنى الرماديّ ذي الطابقين مرّات لا تحصى، ولكنها عندما كانت تلقي نظرة من خلال باب المدخل على الممر المعتم الشبيه بمكتب البلدية وعلى الحائط التالف الـذي ألصقت عليه رزنامة الإبحار، ما كانت لتتخيل قط أنها ستنزل هنا ذات يوم.

ناما بضع ساعات في القسم الأخير من الليل ثم افترقا في ساعة رحيل المراكب. عادت فوزاكو إلى البيـت لتغيّـر ملابسهـا قبـل أن تذهب إلى عملها. وغادر ريوجي الى رصيف المرفأ. كان عليه أن يوقظ ضابط صف الأول الذي سينزل اليابسة ليقوم فيها بمشتروات، وسيكون هو مشغولاً بمراقبة التحميل قبل الإقلاع. كان مسؤولاً عن سلامة وضع الكابلات، ذلك الوضع الهام إلى حد بعيد في عمليات التحميل.

وكان وقت إقلاع «رايوكو» قد حُدّد عند الثامنة عشرة. وبفضل أربعة أيام بلا مطر، أمكن تنفيذ التحميل كما كان متوقعاً، وكان توجه المركب إلى سانتوس، في البرازيل، وكانت طريقه المتعرّجة خاضعة لأوامر التفريغات للإبحار هنا أو هناك.

تركت فوزاكو متجرها باكراً، ولأجل ريوجي الذي لن يشاهد بعدُ

يابانية بثوب تقليديّ، ارتدت « يوكاتا »[1] مـن الكـريـب دوشين، وحلمت مظلّة ذات قبضة فضيّة وتركت البيت مصطحبة نوبورو في السيارة. كان السير سهلاً ووصلا، بعد الساعة السادسة عشرة والربع بقليل. وكان صاري « رايوكو » للحمولة الأمامي ما يزال يتأرجح بين كوة المركب والرصيف، وقرّرت فوزاكو أن تبقى في السيارة المبرّدة حتى يأتي ريوجي لملاقاتها.

على أن نوبور ولم يكن يستطيع أن يبقى جالساً بهدوء، فقفز خارج السارة وتسلّق رصيف مرفأ تاكاشيا المائج بالحركة، ولم يترك مكاناً لم يكتشفه سوى الزوارق المربوطة بالحبال وقاع العنابر.

وكانت ترتفع، في داخل العنابر، تقريباً حتى تشابك عارضات السقف ذات الأخضر الوسخ، أكداسٌ من الصناديق الجديدة البيضاء ذات الزّوايا المجهّزة بالكلاليب المعدنية السوداء التي تحمل وجوهُها تسجيلات بالانكليزية. كان نوبورو يتطلّع إلى درب مرآب يضيعُ في تكديس البضائع، كما لو كان يصعد بصبر مجرى نهر يصل إلى منبعه، أو كما يرى الأولاد في سكة حديدية تبلغ محطتها. كان يبتهج ببلوغ نهاية أحد أحلامه وفي الوقت نفسه كان يشعر بخيبة أمل خفيفة.

« أمّي! أمّي » واندفع نحو السيارة وهو يطرطق الى الزجاج. كان قد لمح ريوجي واقفاً أمام رافعة رحوية جؤجؤ « رايوكو ».

حلت فوزاكو مظلّتها ونزلت من السيارة. ووقفت أمام نوبورو وأخذا يلوّحان بذراعيهما باتجاه طيف ريوجي البعيـد. وقـد ارتـدى قميصاً كاكياً متسخاً، وقبعة البحّار على رأسه، فرفع يده ليردّ عليهما

---

(١) ثوب صيفي خفيف.

ثم اختفى بسرعة، وقد بدا منهمكاً. وفكر نوبورو أنّ البحار كان يعمل، وأنه سوف يذهب عما قليل،فامتلأ زهواً من دون أن يقول شيئاً.

ولم تستطع فوزاكو إلا انتظار عودة ظهور ريوجي. فتحت مظلتها وراحت تنظر إلى «رايوكو» يؤرجح ثلاثة قلوس كانت تشقّ منظور الميناء. وتحت شمس الغرب التي كانت تقذف لهيبها في أصغر زوايا مشهد ذي ضوء باهر، كان يسيطر جو يلتهم كل شيء كالملح الذي كان نسيم البحر محملاً به. ومن وقت لآخر كان صوت صفائح الفولاذ المتلاطمة الذي كان يتجاوب خفية مع صرير الكابلات الفولاذية يفاقم الإحساس الشّاق الذي ينتاب المرء في هذا الجو الباهر. وكان سطح المرفأ الاسمنتي يختزن كل الحرارة ويعكسها. ولم يكن نسيم البحر القليل ليجدي شيئاً.

كانت الأم وابنها مقرفصين عند حافة الرصيف، موليين ظهرهما لشمس الغرب اللاهبة، ويتأملان الأمواج الصغيرة التي كانت تتقدم لتتكسر زبداً، عند حائط المرفأ المبرقش بالبياض. كانت زوارق عديدة تتقدم ببطء ثم تبتعد. وكان نورس يطير، وهو يلامس الماء الذي يغسل الأرصفة. وكانت قطعة خشب تلمع بين قطع أخرى من حطام سفينة وتطفو فوق الماء الوسخ وتتنقل وفق تموجات الموج. كانت الأمواج تتقدم ببطء، وكان جانب أحدها وهو يعكس أشعة الشمس يختلط بالجانب الأزرق للموجة التي تتقدمها. وكان يبدو أن هذا الرسم المتكرر إلى ما لا نهاية هو كل ما كانا يستطيعان رؤيته من الماء.

قرأ نوبورو الأرقام المطليّة بالأبيض على جؤجؤ «رايوكو» ليدل

على مسحوب الماء. ٦٠ كان تماماً فوق الماء. ٨٤ و ٨٦ كانا يحيطان خط العوم، ٩٠ كانت تقريباً على علو الكبلية مما جعل نوبورو يطلق صرخة: « هل يمكن للماء ان يصعد إلى حد كهذا؟ لو حصل ذلك، فسيكون الأمر مريعاً، أليس كذلك؟ »

كان نوبورو يحزر المشاعر التي كانت تثير أمه. كانت تذكره بالقامة العارية والمتوحدة التي كانت تتأمّل البحر، وهي واقفة أمام مرآتها. كان قد طرح سؤاله بالطريقة الأكثر طفولية، ولكن فوزاكو لم تجب.فوراء المرفأ، كان دخان رماديّ خفيف يحلّق فوق حيّ « ناكا »، وكان « برج البحريّة » المقلّم بالأبيض والأحمر يرتفع في السماء. وفي عرض البحر، كانت غابة كثيفة من الصواري تتجمع، وفي الأبعد، كانت غيوم أضاءتها الشمس الغاربة كثيفة من الصواري تتجمع، وفي الأبعد، كانت غيوم أضاءتها الشمس الغاربة تتدرج وتتشابك.

إذ ذاك شوهدت جرّارة تسحب صندلاً تمّ تفريغه تترك الجانب المقابل « للرايوكو » وتبتعد وهي تنفث ببطء بخار آلتها.

كانت السلاسل الفضية اللّون التي تمسك السلّم قد ربطت من قبل. ونزل جمع من عمال السفن المعتمرين قبعاتهم الصفراء ليركبوا الأوتوبيسات التي تحمل اسم الشركة المكلّفة بأعمال المرفأ ويبتعدون. وكان مرفاع المرفأ الآلي لثمانية طن قد غادر. وكانت عمليات التحميل قد انتهت. وإذ ذاك ظهر ريوجي، فتسارع ظلاًّ فوزاكو ونوبورو المتطاولان لملاقاته. غرز ريوجي براحة يده قبعة نوبورو المصنوعة من القش وضحك من جهوده ليرفع أطرافها التي غطّت عينيه. كان العمل قد أضفى عليه مزاجاً مرحاً.

قال وهو يشير بإصبعه إلى مؤخرة السفينة في البعيد: « حانت ساعة الفراق. عندما يغادر المركب، سأكون في المؤخرة ».

ـ لقد جئت بالكيمونو، كما ترى! لن ترى أبداً كيمونو من الآن لوقت طويل!

ـ بلا شك، باستثناء بضع نساء يابانيات عجائز ضمن الرحلات الأميركية المنظّمة ».

شيء مثير للدّهشة ألاّ يجدا شيئاً يقوله أحدهما للآخر: كانت فوزاكو تودّ لو تحدّثت عن حياتها التي ستغدو بعد الآن متوحّدة، ولكنها عدلت عن ذلك. وكما يتغير في الحال لون لبّ التفّاحة الأبيض عند قضمها، كذلك كان الفراق قد بدأ آنفاً، منذ ثلاثة أيام، عندما كانا قد التقيا على السفينة رايوكو. وأن يودع الآن أحدهما الآخر فإن ذلك لم يكن يحمل أيّ انفعال جديد.

أما نوبورو فقد كان يتصنّع مظهر طفل ولكنه كان يراقب كمال الشخصين الحاضرين وكمال الوضع. ذلك كان هو دوره. ولئن كان الوقت الذي مُنحاه قصيراً، فذلك أفضل، وبقدر ما يكون اللقاء أقصر يكون حظ هذا الكمال من التعكّر أقلّ. وبالنسبة لهذه اللحظة، قياساً لرجل يترك امرأة قبل سفر حول العالم، وقياساً لبحّار، لضابط صف في البحرية، كان ريوجي كاملاً. وبالنسبة لمرأة متروكة في الخلف كشراع منفوخ بذكريات سعيدة وبحزن الفراق، فقد كانت كاملة هي أيضاً. كلاهما كان قد ارتكب أخطاء خطرة خلال هذين اليومين الأخيرين .ولكن في هذه اللحظة كان سلوكهما لا غبار عليه. ولم يكن عند نوبورو سوى خوف واحد، هو ان يسمع ريوجي يقول أشياء مضحكة قبل ان يذهب. وتحت الأطراف العريضة لقبعته القشيّة كان يراقب بقلق الوجهين الواحد بعد الآخر.

كان ريوجي يريد ان يعطي فوزاكو قبلة ، ولكن حضور نوبورو كان يخيفه. بالإضافة الى ذلك ، فقد كان يرغب ، كرجل يعلم أنه سيموت ، ان يظهر أيضاً حنوناً للجميع. وفي الوقت الحاضر ، كانت الذكريات ومشاعر الآخرين تبدو له أكثر أهميّة من مشاعره الخاصة. ومع ذلك ، فقد كانت تختبىء وراء إنكاره للذات الرغبة في الذهاب في أقرب وقت ممكن.

ولم تكن فوزاكو تستطيع بعد ان تسمح لنفسها تصوّر الانتظار المقلق ، المضني الذي سيبدأ. كانت تلتهم الرجل بعينيها كما لو أنها تريد أن تتأكد من أنه كان هناك بكامله. وكان للرجل حدودٌ لا ينفذ منها شيء. وأمام هذا الجمود العنيد ، كانت فوزاكو مغتاظة. كم كانت ترغب لو كانت حدوده أقل تميّزاً ، كحدود ضبابة! وسيكون شاقّاً عليها أن تمحو ذكرى عجزها التعيس في تغيير هذه الماهية الثابتة ، لحاجبيه الشديدي الوضوح ، ولكتفيه الصلبتين أكثر مما ينبغي.

قال نوبورو وهو يسيطر سيطرة تامّة على دوره: «أرسل رسائل! ألصق عليها طوابع مهمة!

ـ بالتأكيد! سأرسل شيئاً من كل مرفأ. وسوف تكتب لي. لا شيء يسرّ بحّاراً مثل الرسائل التي يتلقّاها».

وشرح أن عليه ان يذهب ليشرف على الترتيبات الأخيرة قبل رحيل المركب ، وتصافحوا كل بدوره ، صعد ريوجي سلّم السلاسل واستدار حين وصل إلى الأعلى ولوّح بقبعته الفضيّة اللون.

كانت الشمس المنحدرة تدريجياً على سطوح المستودعات تلهب سماء الغرب وترسم على قاع المرفأ ذي البياض الباهر خيالات القلوس الصاعدة من مؤخّرة السفينة إلى المصطبة ومن المراوح الهوائية القائمة.

كان نوبورو يتطلع إلى طيور النورس تدوّم فوق رأسه. كانت أجنحتها داكنة ولكن بطنها كان يبدو بصفار البيض عندما كان يتعرّض للنور.

كانت الشاحنات قد غادرت جوانب «الرايوكو» ذي الجسر الفارغ والهادىء، المغمور بالضوء. ومع ذلك كانت خيالات صغيرة تشاهد: بحّار يلمّع حاجزاً، وآخر غُطِّيت إحدى عينيه بضمادٍ يحمل بيده إناء الدهان ويرسم ما يمكن أن يكون إطار نافذة. لم يكن نوبورو قد لاحظ رايات الإبحار الزرقاء والبيضاء والحمراء التي كانت قد رُفعت كما لم يلاحظ أيضاً راية الإقلاع.

اقتربت فوزاكو ونوبورو ببطء من جهة مؤخرة المركب. كانت الستائر المتموّجة الحديدية لجميع مستودعات الرصيف، ذات اللون الأخضر - الأزرق قد أسدلت. وكان بالإمكان قراءة أسماء سُجّلت بالكلس على الجدر الحزينة: سنغافورة، هونغ - كونغ، لاغوس. وكانت دواليب وصناديق نفاية ومجموعة من النقالات ذات الدولابين مصفوفة بعناية تلقي ظلالها المتطاولة.

وعند مؤخّرة السفينة، فوقها، لم يكن هناك أحد بعد. وكان يُسمع صوت مضخّة التجفيف. وعلى جوانب المركب كانت تسجيلات تحذّر من خطر المراوح، وكان العلم الياباني يرفرف في ظل مرفاع المرساة. وأرسلت الصفّارة أول صفير ثاقب لها في الساعة السابعة عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين. وأدرك نوبورو عند سماعها أن الطيف الذي كان قد شاهده في الليلة السابقة كان حقيقياً. وفهم أنه كان حاضراً في المكان الذي تبدأ منه جميع الأحلام وتنتهي. عندها رأى ريوجي واقفاً أمام العلم الياباني.

قالت فوزاكو: « يمكنه أن يسمعك إن أنت صرخت بقوّة كافية ».

وانطلق نداء نوبورو في اللحظة التي سكتت فيها الصفّارة. وأصابه الذعر من حدّة صوته. أحنى ريوجي رأسه باتجاهها وحرّك قليلاً يده. كانا أبعد من أن يشاهدا تعبير وجهه. ثم، وهو يدير فجأة كتفيه كما فعل ذلك عشية الأمس نحو الجنيّة التي كانت قد انبثقت في ضوء القمر، عاد إلى مشاغله ولم يعد يلقي نظراته باتجاهها.

نظرت فوزاكو إلى مؤخّرة السفينة. كان السلّم قد رُفع. كل شيء قد قُطع بين المركب والأرض. كان جنب « الرايوكو » المطلي بالأخضر والسكريّ شبيهاً بحد فأس ضخم هابط من السماء ليشق ما بين المركب والشاطىء إلى نصفين.

وبدأت المدخنات تبصق دخاناً كثيفاً كان يرتفع غيوماً ضخمة تلطخ السمت الشاحب. وطارت عبر جسر المركب أوامر مرسلة بمكبّرات الصوت:

« المركز أمام انتباه. استعدوا لرفع المرساة. اسحبوا المرساة بشدّة ».

وأطلقت الصفّارة صفرة قصيرة.

« المركز أمام. تستطيعون الانطلاق ».

- « مفهوم ».

- ارفعوا المرساة.

- مفهوم. انطلقوا، خط الرأس، خط الأرض!.

كانت فوزاكو ونوبورو ينظـران إلى « رايـوكـو » يبتعـد عـن الرصيف عندما جرّته القاطرة من المؤخّـرة. وانفتحـت المسـافـة بين الرصيف والمركب المليء بماء متلألىء بشكل مروحي، وكانت أعينهما لا تزال تتابع بريق الأشرطة الذهبية لقبّعة ريوجي. كان المركب قد دار تسعين درجة وواجه الرصيف عمودياً. وكانت الزاوية التي كان يُرى من خلالها تتغيّر من لحظة إلى أخرى، وكان المركب يبدو شبحاً يتشوّه بشكل تدريجيّ. وبقدر ما كانت القاطرة تجرّ « رايوكو » أكثر فأكثر بعيداً، والذي كان طوله يحتل مع ذلك الرصيف كله، فإن المركب كان يبدو كحجاب ساتر ينغلق. جميع الإنشاءات الفوقية على الجسر تغطّـت بدعائم متماسكة.. بالإضافة إلى ذلـك كـانـت أشعـة الشمس الغاربة تحفر بدقة في السماء أصغر تعرجاتها. كان يظهر كما لو أنه يرتفع فوق الأمواج كما كانـت تـرتفـع، في العصـور الوسطـى، الطوابق المتراكبة للقصور المحصّنة. ولكن تأثيره لن يدوم طويلاً. فقد بدأت القاطرة دائرة سير للخلف لتدير مؤخّرة السفينة بمواجهة عرض البحر. وأخذت مظاهر المركب المختلطة تتفتت وعاود « رايوكو » ظهوره بشكله الحقيقي، بأجزاء متتابعة حتى المؤخرة، وارتسم شبح ريوجي، الذي غرب، في شكل صغير، ليس أضخم من عود كبريت. وظهرا في ضوء الشمس الغاربة، الى جانب العلم اليابانيّ.

ـ « القاطرة، انطلقي ».

كان نداء مكبّر الصوت، الممول بالريح، يصل إليهما واضحاً. وابتعدت القاطرة.

وأطلق المركب المتوقّف ثلاث طلقات من الصفّارة. كان ريوجي على سطح المركب، وفوزاكو ونوبورو على الرصيف واقعين في شرك

لحظة بغيضة من الهدوء والصمت. وأخذت صفّارة «رايوكو» تصدي بآخر وداع يهزّ المرفأ بأكمله، ويتردّد في جميع نوافذ المدينة، مهاجماً المطابخ حيث يهيّأ العشاء، وغرف الفندق المشبوهة التي لم تكن أغطيتها تبدّل قط وطاولات الدراسة التي كانت تنتظر عودة الأولاد إلى البيت، وملاعب التنس والمقابر، غامرة كل شيء في لحظة ضيق، ممزّقة بلا شفقة قلب أولئك الذين لا يملكون أي اعتراض.

توجّه «رايوكو» مباشرةً نحو عرض البحر، تاركاً وراءه دخاناً أبيض. وغاب طيف ريوجي عن الرؤية.

القسم الثاني

الشتاء

الفصل الأول

في الثلاثين من كانون الأول، عند الساعة التاسعة صباحاً، خرج ريوجي من مستودع جمرك الحوض المركزي «للمرفأ الجديد». كانت فوزاكو قد أتت لملاقاته. هذا الرصيف كان مصغّراً مثيراً لمدينة: كانت الشوارع فارغة وأنظف مما ينبغي. وكانت صفوف الدُلب التي تحيط بها معراة. وعلى طريق مرآب، بين مستودعات قديمة من الآجر ومكتب إبحار من طراز ما قبل عصر النهضة، كانت آلة بخارية قديمة تبصق غيمة من الدخان الأسود ولم يكن مكان تقاطع الطرق وسكة الحديد الصغير يبدو حقيقياً بل كان يبدو كما لو كان جزءاً من لعبة سكة حديدية للأولاد.

وكان البحر سبب الشعور بلا حقيقية التي كان يضفيها المكان لأنه لم يكن من سبب لوجود الطرقات والبيوت وقطع الآجر نفسها هنا إلا من أجل الملاحة. وكانت قد بسّطت كل شيء، واختصرته. وكان الرصيف بدوره قد فقد طابع الحقيقة الخاصة فبدا منتمياً إلى مجال الأحلام. كان المطر يتساقط بغزارة. وكان الدهان الفاقع الأحمر لقطع قرميد المستودعات القديمة يسيل ويكوّن بركاناً. وكانت الصواري العديدة التي تعلو السقوف تقطر ماء.

ولأن فوزاكو لم تكن تريد ان تلفت الانتباه، فقد كانت تنتظر على المقعد الخلفي للسيارة. ومن خلال الزجاج المخطط بالشتاء، كانت

تراقب أعضاء طاقم السفينة يخرجون الواحد تلو الآخر من المستودع الخشبيّ الرديء للجمرك. توقف ريوجي لحظة عند الباب ليرفع قبّة سترته الزرقاء وغرّز قبعته على عينيه ثم اندفع خارجاً، محني الظهر، حاملاً بيده حقيبة قديمة. أرسلت فوزاكو السائق العجوز، الذي كانت تعرف طبعه الطيّب ليلحق به ويناديه. ارتمى في السيارة كمتاع ضخم مبلّل يُقذف فيها.

« كنت أعلم أنك ستأتين! كنت أعلم ذلك! ». قال ذلك وهو يسترد نفسه ويحيط كتفي معطف فراء فوزاكو. كانت وجنتاه مخططتين بالمطر، إلا إذا كان ذلك من أثر الدموع وكانتا أكثر احتراقاً بالشمس من السابق. وبالمقابل، وتحت تأثير الانفعال، فإن الدم كان قد انسحب من وجه فوزاكو. فأصبحت شاحبة كشحوب زجاج السيارة المعتمة. كلاهما كان يبكي وهما يتبادلان قبلة. دسّ ريوجي يده تحت معطف فوزاكو وتحسّس جسدها بحركة عجلى كما لو أنه كان يريد أن يتأكّد من أن كائناً قد أنقذه من الماء للتوّ ما يزال يعيش. وحاوط بذراعه الجسد اللدن ليستعيد في ذهنه جميع تفاصيل هذا الجسد.

ولم تكن السيارة إلا على بعد ستّ دقائق أو سبع من منزل فوزاكو. واستطاعا أخيراً أن يثرثرا بطريقة طبيعية وهما يجتازان جسر « ياماشيتا ».

ـ شكراً لجميع رسائلك، لقد أعدت قراءة كل منها مئة مرة ».

ـ أنا أيضاً بالنسبة لرسائلك. تستطيع أن تبقى معنا على الأقل حتى أول رأس السنة، أليس كذلك؟

ـ شكراً. كيف حال نوبورو؟

ـ كان يود أن يأتي لملاقاتك على الرصيف، ولكنه أصيب برشح

واضطر إلى ملازمة السرير، ليس في الأمر خطورة، وليست هناك حرارة تقريباً.

كان الحديث عادياً، ملاحظات كان يمكن لأي أرضيين أن يتبادلاها، وكان عفوياً. عندما كانا بعيدين أحدهما عن الآخر كان كل واحد منهما يتصور أن حديثه سيكون صعباً عندما سيلتقيان ثانية. وإعادة عقد الصلة التي كانت قد جمعتهما أثناء الصيف كانت تبدو لهما مستحيلة. وكانت وحدتهما الطبيعية التي صنعت حلقة أشدّ كمالاً مما ينبغي قد انتهت. كانا يعتقدان أنهما كانا قد قفزا خارج هذه الحلقة وأنهما لن يدخلاها مرة أخرى. هل تتخذ الأشياء مجرى آخر لأن ذراعاً كانت تندس في كم معطف كان قد عُلّق في الغرفة منذ أربعة أشهر؟ ولكن دموع الفرح كانت قد طردت كل قلق ورفعتهما إلى مستوى لا يمكن فيه لأي شيء أن يكون مستحيلاً. كان ريوجي كأنه مشلول. ولم تفلح رؤية الأماكن المألوفة، الأماكن التي كانا قد زاراها معاً في ان تثيره. لم يكن يستطيع إلا أن يسجّل البداهة لحديقة «ياما شيتا» التي كان يراها على اليمين وعلى اليسار من زجاج السيارة أو بداهة «برج البحرية» واللذان كانا يبدوان كما كانا يُعرضان مرات عديدة لذاكرته. وكان المطر الذي يتساقط نقطاً دقيقة كالدخان يلطّف حدود الأشياء ويحيلها أكثر اقتراباً من الصورة التي كان قد احتفظ بها عنها، وهذا ما كان يزيد واقعيتها. ولبعض الوقت بعد أن كان قد هبط اليابسة، كان ريوجي ينتظر أن يحس الأرض تميد تحت قدميه، ومع ذلك فإنه اليوم أكثر من أي وقت مضى يحسّ نفسه في عالم ثابت ومحبوب مندمجاً تماماً في مكانه كما تندمج قطعة في لعبة التقطيع.

استدارا يميناً بعد أن اجتازا الجسر، وتابعا بعض الوقت طوال القناة التي كانت مدفونة تحت الأغطية المقطرنة للزوارق وبدأا يصعدان الرابية. عندما تجاوزا القنصلية الفرنسية، وكانت غيوم متناثرة عالية في السماء، تتمزّق، وأخذ المطر يهدأ، كانا قد وصلا إلى قمة الرابية. مرا أمام مدخل الحديقة. استدارت السيارة إلى اليسار في زقاق وتوقّفت أمام بوابة بيت كورودا. ومن البوابة إلى مدخل البيت، لم يكن هناك إلا بضع خطوات ولكن البلاطات كانت تسيل. ووقى السائق العجوز فوزاكو من المطر تحت مظلة ليقودها إلى البيت ورنّ. عندما ظهرت المربية، قالت لها فوزاكو بأن تشعل النور في الممرّ المظلم. اجتاز ريوجي العتبة وتقدّم وسط نصف عتمة. وفي اللحظة القصيرة التي تلزمه ليدخل، هوجم ريوجي بشك خفيف. كانت الحلقة اللامعة التي دخلا فيها معاً تماماً كما كانا قد تركاها، و كان الفارق تافهاً إلى حد لا يُذكر، ومع ذلك فقد كان هناك شيء قد تغيّر. لقد كانت فوزاكو دائماً تتجنّب بعناية أن تلمّح إلى المستقبل، سواء كان ذلك في لحظة الفراق عند نهاية الصيف أو في أية رسالة من رسائلها الكثيرة التي كانت قد كتبتها له. ومع ذلك، فعندما تعانقا لعدة دقائق، أصبح من الواضح أن كلاهما كان قد تمنى بحرارة عودتها إلى هذا البيت. ولكن ريوجي كان فاقد الصبر أكثر مما ينبغي ليسمح لنفسه ان يتوقف عند هذا الفارق التافه، حتى أنه لم يلحظ أنه كان يدخل إلى بيت مختلف تمام الاختلاف.

قالت فوزاكو: «مطرٌ سيليّ، ومع ذلك فيبدو أنه سيتوقف». في هذه اللحظة أنير المدخل وانعكست بلاطات المرمر المستورد التي كانت تزيّن أرض المدخل الضيق في المرآة ذات الزجاج البندقي المزيف.

كانت نار حطب تتوهّج في مدفأة الصالون وعلى بُرقع المدخنة، المهيّـأ لرأس السنة، وضعت صينية صغيرة مع التزيينات التقليدية: نباتات من السرجس، والطحالب، لم يكن ينقص أيّ شيء. وكانت قطع «الموشي» الصغيرة والمدوّرة مزينة، وقد أحضرت المربية الشاي وألقت كلمات ترحيب محببة: «إنني سعيدة أن ألقاك مجدّداً. الجميع كان ينتظرك بفارغ الصبر».

وكانت التغييرات الوحيدة في الصالون عبـارة عـن بعـض نماذج جديدة من تطريز فوزاكو وكأس صغيرة للتنس معروضة في زاوية. رافقت ريوجي في أرجاء الغرفة وشرحت كلّ جديد كان يمرّ أمامه. فمنذ أن غادر ريوجي، كان حماسها للتنس وللتطريز قد ازداد. كانت تلعب في نادي التنس القريب من معبد «ميوكوجي» في نهاية كل عطلة أسبوع. وكانت تفلت أيضاً من المتجـر في بعض أوقات بعد الظهر. وكانت قد أمضت جميع أماسيها وحيدة أمام نولها، وهي تطرز قطعة من الحرير. وكان عدد من نماذجها الجديدة ذا علاقة بالمراكب. وكانت وسادة جديدة، أنجزت هذا الخريـف تعبّـر عـن موضوع المراكب السوداء الشبيهة بمراكب الحواجز الواقية التي تمثّل مراكب غريبة من الزمن الغابر أو دواليب مراكب قديمة. وكانت كـأس البطـولـة والمؤلّفـة مـن قسمين قـد ربحتهـا في مبـاراة آخـر العام. لقد كانت هذه الأشياء جميعها، بالنسبة لريوجي، دليلاً على الطهارة التي حافظت عليها فوزاكو أثناء غيابه.

(١) موشي: حلوى من الأرز المطبوخ والمهروس.

قالت فوزاكو: «لا، لم يحدث أيّ شيء خارق، لا شيء أثناء غيابك.

واعترفت على الرغم من نيتها المعاكسة، أنها لم تكن تستطيع أن تمتنع عن البدء في انتظاره حالما تركها. أرادت أن تنساه، فانغمست باندفاع في مشاغلها، تستقبل الزبائـن. وإذ كان آخر زبون يغادر، ويغدو المتجـر صامتاً، كانت تنصت إلى خرير النبع في صحن الدار. وبعد الإنصات، كانت تحسّ بالرعب. وأدركت إذ ذاك أنها كانت تنتظر. كانت فوزاكو تستطيع، أكثر من أيّ وقت سابق، أن تتحدّث بطلاقة وبلا أي تصنّع. فقد كانت الرسائل الجريئة التي كانت غالباً ما وجهتها إليه قد منحتها حرية جديدة غير منتظرة. وكان ريوجي، هو الآخر، ثرثاراً أكثر من المعتاد، وأشد بهجة، وكان هذا التغيير قد بدأ منذ أول رسالة أرسلتها فوزاكو الى «هونولولو». كان قد غـدا بوضوح أكثر اجتماعية. كان يشارك بجانب أكثر فعالية في ثرثرات مطعم الضباط. بعد قليل، كان رفاقه يعرفون بالتفصيـل مغـامـرتـه الغرامية.

«هل تريد أن تصعد لتقول صباح الخير لنوبورو؟ لقد كان مستثاراً الى حدٍّ بعيد لفكرة رؤيتك من جديد. وأعتقد أنه كان قد وجد مشقّة لينام».

نهض ريوجي. لم يكن يشكّ في أنه كان الرجل الذي كانوا قد انتظروه، الرجل الذي كانوا يحبونه.

أخرج من حقيبته هدية لنوبورو وتبع فوزاكو التي كانت تصعد السلم المظلم نفسه الذي كان قد ولجه وهو يرتجف، على رؤوس أصابعه،

ليلة الصيف تلك. هذه المرة، كانت أقدامه واثقة كأقدام رجل كان قد قُبل.

سمع نوبورو وقع أقدام تصعد. كان مشدوداً بالانتظار، متصلّباً في سريره. ولكن لماذا لم يكن وقع الأقدام الذي يبلغه هو الذي كان ينتظره؟

طرق الباب الذي انفتح على مصراعيه. شاهد نوبورو تمساحاً، صغيراً، أحمر السمرة. كان الحيوان يتموّج عند فتحة الباب في أشعة الشمس التي صفت بها السماء وغمرت الغرفة. ولمدة لحظة، بدا الحيوان، بعينيه الزجاجيتين المتلألئتين، وفمه الفاغر، وقدميه المتيبستين اللتين كانتا تسبحان في الهواء، بدا حيّاً.

كان نوبورو يفكر، ودماغه مشوّش وهو فريسة حمى خفيفة: هل يمكن لأحد ان يتّخذ كائناً حياً ليجعل منه شعاراً؟ ذات يوم، كان ريوجي قد حدّثه عن بحر «الكوراي» في داخل جزيرة المرجان. كان الماء ساكناً سكون صفحة مستنقع ولكنه في عرض البحر، كانت أمواج ضخمة تتكسّر على الأرصفة الخارجية. وكانت رؤوس الزبد الأبيض تبدو كأشباح بعيدة. وفكر نوبورو «إن وجع رأسي الذي لا يقل عن وجع الأمس هو كذروة الأمواج البيضاء التي ترتفع في عرض البحر» والتمساح كان الشعار المتخيّل من صداعه. وفي الحقيقة، كان المرض قد رسم على وجه الصبي بعض الرزانة.

قال ريوجي الذي كان قد وقف في ظل الباب ماسكاً التمساح بطرف ذراعه: «ها هي الهدية التي أحضرتها لك». ودخل الغرفة. كان يرتدي كنزة رماديّة ذات قبّة عالية. كان وجهه برونزياً تماماً.

كان نوبورو قد قرّر ألاّ يستقبله بابتسامة محبّبة، فاختبأ وراء المرض ونجح في الاحتفاظ بوجه مقطّب.

أضافت فوزاكو بلا جدوى: «هذا غريب! كان يسرّ إلى حد بعيد. لا شك أن لديه حرارة من جديد» وفكّر نوبورو: لم يسبق لأمه قط أن أظهرت مثل هذه الدناءة المحقّرة».

قال ريوجي من دون ان يعير انتباهاً لما كان يجري ويضع الحيوان قرب سرير نوبورو: لهذا الحيوان قصته، كما تعلم. هذا التمساح قد صبّره هنود في البرازيل. وأؤكد: هنود حقيقيون. فبمناسبة أحد الأعياد يضعون على رؤوسهم تمساحاً كهذا، أو عصفوراً مائيّاً مصبّراً، أمام الأزهار التي يغرسونها في شعورهم ويلصقون ثلاث مرايا صغيرة مستديرة على جبينهم. عندما تعكس المرايا النيران المشتعلة، كانوا يعتقدون أنهم يرون شياطين بعيون ثلاث. كانوا يلبسون عقوداً من أنياب الفهد حول العنق وتنانير من جلد الفهد ولديهم جعب على ظهورهم وأقواس رائعة. وكذلك أسهم بألوان مختلفة، هذه هي قصة هذا التمساح. إنه يشكل جزءاً من لباس الهنود في العيد.

ـ شكراً.

لم يقل نوبورو إلا هذه الكلمة الوحيدة للشكر. كان يداعب الحدبات الخفيفة لظهر التمساح الصغير وأقدامه الذابلة، ويلاحظ الغبرة التي كانت قد تجمّعت حول العينين الزجاجيّتين الحمراوين، بينما كان الحيوان موضوعاً على لوح في دكان في مدينة من ولاية البرازيل، ثم أخذ يستعيد ما كان قد قاله ريوجي. كانت الحرارة قد جعّدت وبلّلت شراشفه، وكانت غرفته حارّة أكثر مما ينبغي. وكانت شفتاه الجافّتان تنقشران وتنشران مزقاً على الوسادة.

وكان يسائل نفسه إذا ما كانت شفتاه تبدوان أكثر احمراراً مما ينبغي. وفي الوقت نفسه اتجه نظره بطريقة لا إرادية نحو الدرج حيث كان الثقب. وبعد أن كان قد نظر، كان يبدو قلقاً. ما الذي يمكن أن يحصل لو أن الأشخاص الكبار الحاضرين كانوا قد تتبعوا عينيه وألقوا نظرات مرتابة من هذه الناحية. ولكن لا.. كل شيء يسير على ما يرام. كان لديهم ذهن أقل توقداً مما كان قد تصوّر. كانا يتحركان ضمن حب لا يتأثر بما لم يكن يعنيهما. كان نوبورو يحدّق بريوجي. كان وجهه، المحروق بالشمس، يبدو أكثر ذكورة من السابق، وكانت كثافة حاجبيه، وبياض أسنانه أكثر لفتاً للانتباه. ولقد كان لدى نوبورو الإحساس بأنه كان يبذل جهوداً، حتى في هذا الحديث الأول، ليرضي أحلامه، وأن الرسائل العديدة التي كان قد تلقّاها منه كانت تدل على نقص في الطبيعي يلامس التملّق. لقد كان في الريوجي الذي يراه من جديد نوع من التزييف للريوجي الحقيقي، وحين عيل صبره، قال نوبورو:

- «هم.. إن ذلك يشعر بشيء من الاختلاق».

ولكن ريوجي سخر في شيء من الودّ:

- «لا! لا تمزح! ألأنه أصغر مما ينبغي؟ التماسيح تكون صغيرة عندما تكون فتية. اذهب وانظر في حديقة الحيوانات.

- نوبورو، لا تقل أشياء غير مهذّبة! بدلاً من ذلك، سيكون من الأفضل أن تريه مجموعة طوابعك.

وقبل أن يرفع نوبورو يده، كانت أمه قد أمسكت الألبوم

الموضوع على المكتب حيث كان نوبورو قد صفّ بعناية طوابع الرسائل المرسلة من قبل ريوجي من جميع البلدان وعرضتها عليه.

كانت جالسة مقابل الشرفة وكانت تقلب الصفحات بينما كان ريوجي، ينظر من فوق كتفها، وذراعه ممدودة على ظهر الكرسي. ولاحظ نوبورو أن كليهما كان يتمتّع بجانبية جميلة، وكانت أشعة الشتاء الخفيفة تضيء بلطف منحنى أنفهما. وكانا يبدوان أنهما قد نسيا تماماً وجود نوبورو.

سأل نوبورو فجأة: «وهذه المرة، متى ستعاود الذهاب»؟

وانتفضت فوزاكو وهي تستدير نحوه، ولاحظ نوبورو أن وجهها قد شحب. كان هذا هو السؤال الذي كان أكثر شيء يهم أمه وأكثر ما كانت تخشى طرحه.

كان ريوجي يبدو وكأنه قد وقف عمداً أمام النافذة، مديراً لها ظهره. أغمض عينيه نصف إغماضة وردّ على مهل:

ـ «إنني لا أعلم بعد عن ذلك شيئاً».

أحدث هذا الجواب صدمة لنوبورو. ولزمت فوزاكو الصمت ولكنها كانت تشبه زجاجة مليئة بالعواطف المختلطة في حالة غليان قرب السدّادة. ولم يكن بالإمكان معرفة ما إذا كان وجهها يعبّر عن الأسى أو الفرح. كان مليئاً بالأسرار. وكان نوبورو يرى أنها كانت تشبه غسّالة.

مرّت برهة ثم استأنف ريوجي الكلام بهدوء. كانت نبرته توحي بالودّ، وتحمل طابع الحنو الذي يحسّه رجل عندما يكون متأكّداً من قدرته على التأثير على مصير إنسان آخر:

ـ على كل حال، فإن تفريغ المركب لن يتم إلا بعد رأس السنة.

غادرا. وأخرج نوبورو المحمّر من الغضب، وهو يسعل بعنف، أخرج من تحت وسادته دفتر يومياته وكتب عليه ما يلي:

اتهامات ضد تسوكازاكي ريوجي.

٣) عندما سألته متى سيذهب، أجاب من غير أي توقع: «إنني لا أعرف عن ذلك شيئاً». وضع نوبورو ريشته، وفكّر لحظة بينما كان غضبه يتصاعد، ثم أضاف.

٤) كونه عاد إلى هنا.

ولكنه بعد قليل، خجل من غضبه. ما عساه سيكون موقفه حيال المبدأ الذي كانوا قد علّموه إياه: «لا تظهر أي شعور» بالرغم من أنه كان رسّخ هذا المبدأ بلا شفقة. لقد سبر قلبه بعناية ليتأكد من أنه لم يكن فيه بعد أيّ جزء صغير من الغضب، ثم أعاد قراءة ما كان قد كتبه، و عندما انتهى من القراءة كان مقتنعاً: لم يكن هناك شيء للتصحيح.

في هذه اللحظة، سمع ضجة من الغرفة المجاورة. ظاهراً كانت أمه قد دخلت إلى غرفة نومها. وكان يبدو أن ريوجي هو أيضاً هنا.. لم يكن باب غرفته هو قد أقفل بعد بالمفتاح. وأخذ قلب نوبورو يخفق. وتساءل، كيف يمكن، في غرفة غير مقفلة بالمفتاح، وفي هذه الساعة من الصباح وبسرعة ـ وهذا مهم ـ أن يرفع الدرج وينزلق إلى مكانه من دون أن يثير الانتباه.

الفصل الثاني

كانت فوزاكو قد تلقّت، كهدية، حقيبة يد من جلد التمساح. كانت حقيبة غريبة بقبضة تذكّر بعنق جرذ، وقفل غليظ كما كانته غرزة الحوافي. ولكن فوزاكو كانت سعيدة بأن تحمله وبأن تعرضه بفخر في المتجر تحت النظر المستهجن للسيد شيبويا المدير.

وقضيا آخر يوم في السنة كل على حدة، وكانت «فوزاكو» منهمكة في متجر «ركس» وكان «ريوجي» يتولى نوبة الحراسة بعد الظهر. هذه المرة، كان يبدو لهما أمراً طبيعياً أن يفترقا.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية والعشرين عندما عادت «فوزاكو» من المتجر. كان «ريوجي» قد ساعد «نوبورو» في التنظيف التقليدي الذي يقام عشية عيد رأس السنة. وكانا، مع مساعدة المربية، قد توصلا إلى إتمام مهمتهما في وقت أقصر مما كان عليه في السنوات الماضية. وكان «ريوجي» قد أعطى تعليمات سريعة كما يفعل بالنسبة لتنظيف السفينة. وكان «نوبورو»، التي سقطت درجة حرارته منذ الصباح، قد أطاع أوامره بكل سرور.

وكان «ريوجي» قد رفع كمي سترته وحزم جبينه بمنشفة. وكان «نوبورو» قد قلّده فاكتسب خداه بعض اللون. وعندما عادت «فوزاكو»، كان كلاهما قد أنهى تماماً تنظيف الطابق الأول وكانا يهبطان السلّم حاملين مكنستهما ودلوهما. ونظرت إليهما «فوزاكو» مذعورة ومسحورة في آن واحد. وكانت تخاف على صحة «نوبورو».

« إن الأمر أفضل هكذا! فالعمل بهذه الطريقة يجعل المـرء يعرق ويزكّم». هكذا تكلّم «ريوجـي» بلهجة يريدها معزّية، إلا أنها كانت خشنة خشونةً لم يسبق أن سُمعت في البيت منذ زمن طويل. كانت تلك «كلمات رجل» تجعل المـرء يعتقد أن عواميد الغرفة القديمة وجدرانها كانت تنكمش على نفسها.

وعندما اجتمع أفراد المنزل للاستماع إلى الأجراس عند منتصف الليل وتناول طبق المعكرونة الحنطيّة التقليدي، حكت المربية قصة حصلت لها وكانت تردّدها في كل عامٍ جديد: «قديماً، عندما كنت أعمل عند عائلة «ماك كريغور»، كان العديد من المدعوين مجتمعين في آخر يوم في السنة، وفي منتصف الليل تماماً، كان كل منهم يقبّل جاره، أيّاً كان. وذات مرة، وجدتُ نفسي بجوار رجلٍ «ايرلندي» عجوز، له شارب غليظ، أخذ يمصّ خدي بشفتيه المبلّلتين!».

وحال استلقاء «ريوجي» و «فوزاكو» على السرير، احتضنها «ريوجي». وعندما شاهد خيوط الفجر الأولى، اقترح فجأة اقتراحاً طفوليّاً: لماذا لا يذهبان إلى الحديقة المجاورة لإلقاء التحية على بـزوغ الشمس الأول لهذه السنة؟ وقد فُتنت «فوزاكو» المتحمّسة بفكرة الجري الجنونيّة في الخارج تحت السماء الباردة.

ارتدى كلاهما على عجل الملابس التي وجداها في متناول يديها. وارتدت «فوزاكو» بنطالاً فوق تبّان، وكنزة من الكشمير وضعت فوقها كنزة أخرى دانمركية رائعة للتزلّج. ووضع «ريوجي» على كتفيها كميّ معطف قصير، وهبط كلاهما بخطى غير مسموعة، وأدارا مفتاح باب الدخول وخرجا.

وابتهجا بهواء الفجر الذي كان يصفع جسديهما الملتهبين، وركضا في الحديقة الخالية، يضحكان دون أيّ تحفّظ وتطاردا حول شجر الأرز. وكانا يتنشقان بعمق ويتنافسان على من منهما كان سيزفر البخار الأكثر بياضاً في الهواء البارد الداكن. وكان يبدو لهما أن قطع الثلج كانت تسدّ فمهما المرتويين من قُبل ليلة حب بطولها.

وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة عندما استندا على الدربزين المطلّ على المرفأ. وكانت «فينوس» تهبط جنوباً. وكانت أضواء المباني وأنوار أطراف سقوف الحظائر، ومصابيح ساريات السفن الحمراء لا تزال تسطع. وكان بريق المنارة الأخضر والأحمر يكسح ظلام الحديقة. إلا أنه كان من الممكن أن يحزر المرء حدود البيوت، وكانت السماء، في الشرق، تتلوّن بلون أحمر بنفسجي.

ضعيفاً وبعيداً وصلهما صياح الديك الأول في السنة، عبر ريح الصباح الباردة التي كانت تمرّ بحريّة فوق أغصان الشجيرات. وكان الصياح مؤثّراً متقطّعاً. وقالت «فوزاكو» بصوتٍ عالٍ كأنها تصلّي: «فلتكن سنة سعيدة لنا!». وكان الطقس بارداً، وعندما أدنت خدّها من وجه «ريوجي»، قبّل شفتيها القريبتين من شفتيه قائلاً: «ستكون سنة سعيدة لنا، هذا مقدّر».

وظهر تدريجيّاً شكل مبهم عند ضفة الماء. كان ذلك مبنى. فنظر «ريوجي» بتمعّن الى المصباح الأحمر الموضوع فوق سلّم الانقاذ، وأدرك تمام الإدراك الحياة على الأرض اليابسة. كان سيبلغ الرابعة والثلاثين من عمره في شهر أيار من هذا العام. وكان قد حان الأوان لكي يتخلّى عن الحلم الذي طالما داعبه. كان عليه أن يفهم أنه لم يكن لينتظره أي مجد خاص به في هذا العالم. وربما لم يكن من الضروري أن تشع مصابيح سقوف الحظائر بشعاعها المزرورق في نيران الصباح

الأولى. أما « ريوجي »، فكان عليه أن ينهض.

وبالرغم من أنه كان يوم رأس السنة، كان المرفأ يرتجّ بخرير أصمّ مستمرّ. وكان ينفصل بين الحين والآخر، زورق عن الأسطول المربوط على القناة وينطلق على دقّات محرّكه المكرّرة. واتخذ سطح الماء الهادئ ـ والذي كان يستقبل الأنوار من مصابيح الزوارق العديدة عند المرساة ـ صبغة أرجوانية خفيفة. وفي الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة، انطفأت مصابيح الحديقة الزئبقية في آنٍ واحد.

وكان « ريوجي » غالباً ما يسأل: « ألم يصبك البرد؟ »

ـ « البرد جمّد لثتي، لكن كل شيء على ما يرام. ولن تتأخّر الشمس في الإشراق ».

وفيما كان « ريوجي » يردّد السؤال: « ألم يصبك البرد »، كان لا يكفّ عن طرح الأسئلة على نفسه: « أحقاً ستهجر؟ الإحساس بالمحيط، الثمل الداكن الذي يسبّبه الترنّح المستمر، والوداع المؤثّر! والدموع العذبة التي كانت أغنيتك المفضّلة تجعلك تذرفها. هل ستهجر الوضع الذي أبعدك عن العالم، الذي حملك إلى أسمى القمم التي يمكن أن يبلغها الرجل الذي أنت إيّاه؟ والشّوق للموت الذي يختبئ في صدرك الملتهب، والمجد الذي هو هناك؛ والموت الذي هو هناك؟ وفي الأحوال جميعها، كان ذلك دائماً هناك، هناك بلا جدال. هل ستهجر كل هذا؟ »

وكان ينسب إلى البحر مزاياه ومساوئه، وقد عذّب قلبه صراعه المستمر مع الأمواج الصاخبة المعتمة والنور الجليل الهابط من حافة الغيوم، هو من أوقف اندفاعاته ولكنه عاد راحلاً بجرأة، هو من عجز عن التمييز بين العواطف النبيلة والعواطف الحقيرة: « هل ستهجر هذه الحريّة الساطعة؟ »

وفي طريق العودة من السفر، كان «ريوجي» قد اكتشف اشمئزازه من بؤس حياة البحّار ومن الملل الذي يشعر به. وكان قد اقتنع بأنه جسّ كل شيء، وأنه لم يبق شيء لم يذق طعمه. ولم يكن عليه سوى أن ينظر. لم يعد هناك أي مجد يُحصد في أية رقعة من العالم، لا في القطب الشمالي، ولا في القطب الجنوبي، ولا حتى هذه النجمة التي طالما حلم بها البحّارون، «صليب الجنوب».

كان بإمكانهما الآن تمييز قوافل أخشاب الأسياج في تعقّد سطوح المياه. وكانت صيحات الديوك تتتالى واكتست السماء بريقاً متواضعاً. وأخيراً انطفأت أضواء الساريات واختفت الزوارق كأشباح في الضبابة التي كانت تحيط بالمرفأ. ثم احمرّت السماء قليلاً وانخفضت الغيوم مغطّية البحر. وفي تلك اللحظة، أصبحت فُرجات الحديقة وراءهما ناصعة البياض. وانطفأت أطراف شعاعات المنارة، تاركةً بصماتها على النقاط التي كانت قد أضيئت باللون الأخضر والأحمر.

كان البرد قارساً ـ واستندا على الدربزين متعانقين يضربان أرجلهما أرضاً طلباً للدفء. كان البرد قد بلغ قدميهما أكثر منه وجهيهما العاريين، وكان يصعد إلى جسميهما كلّهما.

وعندما شرعت العصافير الصغار بالزقزقة، قالت «فوزاكو»: «لن يطول هذا البرد الآن». وكانت حمرة الشفاه التي وضعتها على عجل قبل أن تذهب، تبرز بقوّة على وجهها الذي كان البرد قد خبته وبعثره. وتأمّلها «ريوجي» بإعجاب.

وبعد بضع لحظات، في البعيد، على يمين أخشاب الأسياج، ظهرت دائرة حمراء على السماء الرمادية. وفي الحال، أصبحت الشمس كوكباً

أحمر قانياً، إلا أنه احمرار ضعيف أمكنها من التحديق به، كقمر مكتمل أحمر.

وقالت « فوزاكو » بصوت شوّهه البرد: « ستكون سنة سعيدة لنا، ولا يمكن لها إلا أن تكون كذلك لكلينا نحن الاثنين اللذين ننظر معاً أول شروق الشمس في هذه السنة. ثم هل تعلم أنها المرة الأولى التي أرى فيها شروق الشمس في أول يوم في السنة؟ »

وكأنه كان يلقي الأوامر متصارعاً مع هواء الشمال على الجسر في الشتاء، قال « ريوجو » بأقوى صوته:

هل تريدين أن تتزوجيني؟

ـ ماذا؟

وأضاف كلمات كان بإمكانه الاستغناء عنها، وقد انـزعـج مـن تكرار نفسه.

ـ « أسألك إن كنتِ ترغبين الزواج مني. ربما لستُ سوى بحّار بليد لكني لم أقم يوماً بعمل يمكنني أن أؤنب نفسي بشأنه. إنك لا شك ستسخرين مني، إلا أني ادخرتُ قرابة مليوني « ين ». وسأطلعكِ على دفتر حوالاتي لاحقاً. تلك هي ثروتي كلها. وسواء تزوجت بي أم لا فإني على استعداد لأن أعطيك كل ما أملك.

أثّر هذا العرض البسيط كل البساطة على قلب هذه المرأة الأرقّ مما كان يظنّ. وبكت « فوزاكو » من فرط فرحها.

كانت الشمس الآن تقذف أشعتها الأشد حرارة من أن تتحملها عينا « ريوجي » القلقتان. وكانت أصوات الصفّارات تتصادى، وكان

للسيارات ضجيج مصمّ. وكان المرفأ يستيقظ في صخب متواصل. وكانت الضبابة تخفي الأفق. وكانـت شعـاعـات الشمس الأولى التي انعكست على الماء قد غطّت هذا الماء ببخار أحمر.

ـ بالتأكيد أرغب في ذلك. غير أني أعتقد أن ثمة مسائل يجب حلّها أولاً. فهناك « نوبورو » مثلاً، ثم عملي في المتجر. هل بإمكاني أن أطرح شرطاً واحداً فقط؟ فإن كنتَ سترحل عما قريب، كما سبق لك أن قلت لي، سيصعب عليّ أن...

ـ لن أبحر على الفور. أو... » وبقي « ريوجي » متردّداً.

لم تكن ثمة أية غرفة يابانيّة الطابع في بيت « فوزاكو ». وكانت تعيش كليّاً على الطريقة الأوروبيّة باستثناء أول يوم في السنة، عندما كانت تخلص للتقاليد وتقدّم الإفطار الخاص بعيد رأس السنة في قاعة الطعام الأوروبية على أطباق مُبرنقة وتتبادل الأماني فيما كانت تشرب « الساكي »[1] المُتبّل.

لم يكن « ريوجي » قد نـام لحظـة واحـدة. وغسّـل وجهـه بـالماء « الفتي »، الماء الأول من هذه السنة ودخل قاعة الطعام. وتخيّل أنه لم يكن في اليابان بل كان لا يزال في أوروبا، في قنصلية يابانية في مرفأ شمالي، وقد كان ضباط البواخر التجارية الذين كانوا في مرفأ مدعوين إلى وليمة تنظمها القنصلية للاحتفال بعيد رأس السنة. وفي قاعة طعام غربيّة، تشبه تمام الشبه القاعة هنا، كانت الأواني لتسخين « الساكي »

(١) الساكي: شراب كحولي ياباني يُصنع من الأرز المختمر (هـ.م).

والأكواب الخشبية مرصوصة على رف مُبرنق نافر. وكان كل مدعو يغادر المكان حاملاً علبة ذات طبقات من المقبلات المختلفة الألوان.

ونزل « نوبورو » مرتدياً عقدة عنق جديدة، وتبادل الجميع التهاني بمناسبة عيد رأس السنة. وفي السنوات الماضية، كان « نوبورو » هو الذي يبدأ الشرب مقدماً تهانيه. ولذلك، مدّ يده إلى أبعد وأصغر كأس ـ إلاّ أنّ أمه أوقفت حركته بنظرة تأنيب.

وقال « نوبورو » متصنّعاً هيئة طفل مرتبك: « يبدو لي غريباً أن يشرب السيد « تسوكازاكي » الكأس الصغرى ». إلا أنه لم تغب عن عينيه الكأس التي أُعطيت « لريوجي ». وكانت الكأس تبدو أصغر في الأصابع الغليظة الخشنة التي كانت تحملها إلى شفتيه. وكانت الكأس المزيّنة بغصن الخوخ المزهر تختفي في يدٍ معتادة على سحب المرساة، فكانت تبدو مبتذلةً أشدّ الابتذال.

وقصّ « ريوجي »، بعد أن انتهى من تقديم تهانيه، وقبل أن يرجوه « نوبورو »، قصة عاصفة هبّت في جزر « الكرايبب »: « عندما يتفاقم اهتزاز السفينة، نكاد نفشل في طبخ الأرز. وعندما نتوصل لطبخه رغم كل شيء، نأكله صانعين منه كريات. وبالطبع لم يكن بإمكاننا أن نُثبّت الأقداح على الطاولة، فكانت تُرتّب طاولات المربّع ونجلس جميعنا على الأرض مشابكين سيقاننا، قاضمين كما نستطيع كريات الأرز. إلاّ أن هذه العاصفة في « الكرايبب » كانت حقاً مريعة. وكانت سفينة « راكويو » قد اشتراها البعض من الخارج، وكانت في العشرين من عمرها. ولذا كانت تسرّب اليها الماء عندما تهبّ العاصفة. وكانت المياه تتدفّق من ثقوب مسامير هيكل السفينة. وفي مثل هذه الأحوال، لا فرق بين الضباط ورجال السفينة،

فجميعهم يعملون معاً كجراذين تغرق، سادّين منافـذ الماء، ملصقين الحصائر على الجدران، جابلين الإسمنت في أحواضٍ لسدّ الثغرات. وإن دُفع بك أثناء العمل إلى أحد الجدران، أو إذا وجدتَ نفسك في الظلام بسبب انقطاع التيّار الكهربائي، فلن يُتاح لك الوقت لكي تخاف. وهكذا، حتى وإن أبحرتَ سنوات عديدة، لن تعتاد يوماً على العواصف. وفي كل مرة تتساءل إن كنتَ ستودّع الحياة. وفي كل الأحوال، كانت الشمس، عشيّة عاصفتنا الأخيرة، تشبه أكثر مما ينبغي حريقاً كبيراً. وكان احمرار السماء يميل إلى السواد. وهدأ البحر فجأة. وكان قد خيّل لي أن شيئاً ما سيحدث.

وصرخت «فوزاكو» وقد سدّت أذنيها بيديها: «هذا أفظع من أن يُحتمل! أفظع من أن يحتمل، أرجوك ألاّ تحكي بعد حكايات مماثلة!»

وفكّر «نوبورو» أن قصة المخاطر هذه كانت موجّهة اليه دون ريب. ورأى أن اعتراض أمّه، التي سدّت أذنيها، كان مسرحياً. وذلك ما أزعجه. إلاّ إذا كانت القصة موجّهة لأمه؟

وضايقت تلك الفكرة «نوبورو». كان «ريوجي» قد سبق له أن أخبر قصص الإبحار بالطريقة نفسها، إلاّ أن لهجته هذه المرّة بدت مختلفة. وكانت هذه اللهجة تذكّر «نوبورو» ببائع متجوّل يخرج من وراء ظهره صُرّة من الأشياء المختلفـة يعبـث بها بيـديـه القـذرتين. وكانت تلك الأشياء المختلفة التي يبيعها «ريوجي»، تتضمّن العاصفة في جزر «الكرايبب»، وحفلة مغطاة كليّاً بغبار أحمر في ريف برازيلي ومناظر بمحاذاة قناة بناما، وعاصفة استوائية تُغرق قرية بلمحة بصر، وببغاوات مخطّطة بألوان تصرخ صرخات ثاقبة في سماء داكنة.

الفصل الثالث

رحلت سفينة « الراكويو » في الخامس من شهر كانون الأول ولم يكن « ريوجي » على ظهرها. وكان قد بقي ضيفاً في منزل عائلة « كورودا ».

وفتح متجر « ركس » في السادس من الشهر نفسه. وذهبت « فوزاكو »، وقد اطمأنت إلى بقاء « ريوجي » ومغادرة « راكويو » إلى المتجر قبل الظهر وتلقّت تهاني السنة الجديدة من المدير، السيد « شيبويا » ومن الموظفين جميعهم. وكانت لائحة أسعار موزّع بضائع انكليزيّة، وهي تتعلّق بعدّة دستات من الحاجات، تنتظرها على مكتبها.

إلى السادة « ركس » وشركاه، « يوكوهاما »

طلبية رقم ١٠٦٣ ب.

كانت البضائع قد وصلت أثناء العطلة على سفينة « الالدورادو »؛ وكان ثمة دستتان ونصف من سترات رجالية وكنزات، وخمسة عشر بنطالاً رياضياً من القياسات رقم ٣٤، ٣٨، ٤٠. وكانت اللائحة تصل إلى ٨٢٥٠٠ « ين ». وإذا زدنا عمولة الموزّع وهي عشرة بالمئة، يكون المجموع ٩٠٧٥٠ « ين ». وإن وضعنا البضائع جنباً لمدة شهر واحد، يمكننا اعتماد ربح يصل إلى خمسين ألف « ين »، وكان أحد الزبائن قد طلب نصف البضائع؛ فيمكن لنصفها على الأقلّ أن تصرّف

على الفور. فينبغي ألاّ يقلق المرء بشأن الانخفاض إن بقيت البضائع دون أن تباعِ لبعض الوقت، تلك كانت ميزة بيع أصناف انكليزية بواسطة موزَع من الدرجة الأولى. وكانت أسعار إعادة البيع تحدّد في انكلترا، وإن حاول المرء أن يبيع بسعر أقل من السعر المحدّد، فإن الأشغال ستعلّق.

دخل السيد « شيبويا » مكتب « فوزاكو » وقال:

- « إن مؤسسة « جاكسون » تنظّم معرضاً لسلع الربيع والصيف في الخامس والعشرين من الشهر المقبل، لقد تلقينا منها الدعوة ».

- آه، يعني هذا أننا سنزاحم كبار المشترين في مخازن « طوكيو » الكبيرة، بالطبع، ليس هؤلاء الأشخاص عمياناً.

- « لا يفهمون من هذه الأمور شيئاً لأنهم لم يرتدوا يوماً ملابس من الصنف الجيّد.

- تلك هي الحقيقة. (وأخذت مذكرة مكتبها وسجّلت التاريخ) « هل سنذهب غداً لوزارة التجارة؟ يصعب عليّ مناقشة هؤلاء الموظفين. وسأكتفي بالابتسامة وأعتمد عليك.

- سيكون الحال على ما يرام. إن أحد الموظفين صديق قديم لي.

- حقاً، لقد سبق وقلتَ لي ذلك، لقد أنقذت.

لكي يرضي متجر « ركس » زبائن جدداً، عقد اتفاقية في « نيويورك » مع مخزن للملابس الرجالية، في المدن والأرياف. كانت خطابات اعتماد قد أرسلت وكان على « فوزاكو » أن تلجأ لوزارة الاقتصاد للحصول على رخصة استيراد.

وقد عرفت «فوزاكو» ياقة السترة من شعر الجمل التي كان يرتديها مدير قديم نحيل وأنيق كان يجلس إلى الطرف الآخر من الطاولة.

وسألت السيد العجوز: «سيكون الحال على ما يرام، يا سيد «شيبويا». وكيف صحتك؟».

ـ ليس وضعي الصحي مرضياً جداً. أعتقد أني مصاب بمرض عصبي، إلاّ أن الألم يمتدّ إلى جميع الجهات.

ـ هل استشرت طبيباً؟

ـ كلا، في شهر كانون الثاني هذا...

ـ ولكن ألم تكن في صحة جيدة في أواخر السنة؟

ـ في آخر السنة، لم يكن لي الوقت الكافي لاستشارة طبيب.

ـ خيراً تعمل إن استشرت طبيباً في أقرب وقت ممكن. إن كنا سنخسرك، فمن الأفضل أن نغلق المتجر ونرحل.

ابتسم المدير العجوز ابتسامة خفيفة ولمس بيده البيضاء العصبيّة عقدة عنقه.

ودخلت بائعة لتعلن أن الآنسة «كاسيكا يوريكو» قد وصلت.

ونزلت «فوزاكو» إلى الصالة. كانت يوريكو قد أتت وحدها دون أي مرافق، وكانت ترتدي معطفاً من فرو فيزون، وكانت تنحني لتتفحّص خزانة مزجّجة. واشترت بعض الأشياء التي لا قيمة لها: حمرة شفاه من صنف «لانكوم» وقلم حبر «بيليكان». ثم دعتها «فوزاكو» لتناول الغداء. فأشرق وجه الممثلة الشهيرة فرحاً. وأخذتها

« فوزاكو » إلى مطعم « السنتور »، وهو مطعم فرنسي صغير قريب من المرفأ كان بعض أصحاب اليخوت غالباً ما يلتقون فيه. وكان صاحب المطعم رجلاً عجوزاً يتذوّق المآكل كان يعمل في السنوات الماضية في القنصليّة الفرنسية.

وكانت « فوزاكو » تراقب الممثّلة كأنها كانت ترغب في معرفة مدى وحدة هذه المرأة البسيطة بل والخاملة بعض الشيء.

لم تكن « يوريكو » قد فازت بأية من المكافآت التي كانت تتوقعها في الأعوام الماضية. وكان هدف مجيئها إلى « يوكوهاما » هذه السنة هو الاختباء من العيون التي تنظر إلى النجمة التي خسرت جائزة. وبالرغم من أنها كانت محاطة بكميّة من العشاق، كانت المرأة الوحيدة التي يمكنها أن تكون صريحة معها ومرتاحة هي صاحبة متجر كماليات في « يوكوهاما » التي لم تكن حتى صديقتها الحميمة.

وفكرت « فوزاكو » بأنه من الأفضل عدم التكلّم عن جوائز أفلام السينما أثناء الغداء.

شربت كلتاهما زجاجة نبيذ من صنع محليّ نصحهما بها المطعم، فيما كانا يتناولان حساء. لم تكن « يوريكو » تتمكن من قراءة لائحة الطعام المكتوبة باللغة الفرنسية. وقد اختارت « فوزاكو » المآكل لها.

وقالت فجأة « يوريكو » الرائعة الجمال: « يا ماما، أنت حقاً جميلة جداً. وسأعطي كل ما لديّ لكي أشبهك ».

وفكّرت « فوزاكو » بأن الممثلة هي المرأة الوحيدة التي تغضّ من شأن جمالها الخاص. كان لها صدر رائع وعينان جميلتان وأنف مرسوم رسماً ممتازاً وشفتان شهوانيّتان. إلاّ أنّ إحساساً بالنقص كان يقلقها.

حتى أنها كانت تعتقد، وذلك كان يزعجها أكثر، أنها لم تحصل على أيّة جائزة لأن الرجال الذين كانوا يشاهدونها على الشاشة لم يروا فيها سوى امرأة يرغبون في مضاجعتها.

ولاحظت «فوزاكو» السعادة التي لا تكاد تُلمح، عند هذه المرأة الرائعة، الشهيرة ولكن التعيسة حيَن وضعت إمضاءها على دفتر المطعم الذي قدّمته لها إحدى الخادمات. وكان رد فعل «يوريكو» أمام دفتر تواقيع يعطي دائماً دلالة جيّدة على مزاجها. وكان المرح، القريب من السُكْر، الذي وضعت فيه إمضاءها، من الشدّة بحيث يخيّل لنا أنها كانت ستعطي أحد نهديها، لو طُلب منها ذلك.

وقالت يوريكو بلامبالاة أثناء الطعام وقد أشعلت سيجارة نسائية مستوردة: «إن الأشخاص الذين أثق بهم دون غيرهم هم أنصاري، حتى وإن كانوا سريعي النسيان».

وسألت «فوزاكو» مُنَكِّدَةً: «ألا تثقين بي؟» وكان بإمكانها أن تتنبأ الردّ الإيجابي لمثل هذا السؤال.

ـ لو كنتُ لا أثقك بك، لما كنتُ قد جئتُ حتى «يوكوهاما». أنت وحدك صديقتي الحقيقية، وهذه هي الحقيقة. لقد مضى وقت طويل لم أشعر بهذا القدر من الارتياح، يا «ماما».»

مرة أخرى هذه التسمية التي كانت «فوزاكو» تكرهها أشدّ الكراهية. وحرّكت «فوزاكو» حاجبيها مستاءة. وكانت جدران المطعم مزيّنة برسوم مائيّة تمثّل أشهر سفن النزهات. وكانت الطاولات الخالية مغطاة بأغطية حمراء ذات تخطيطات متشابكة ـ لم يكن ثمة أحد سواهما في القاعة الصغيرة. وكانت إطارات النوافذ القديمة تئن.

وتطايرت صحيفة في الشارع من نافذة مفتوحة. وكان المشهد ينتهي عند حائط مستودع رمادي.

احتفظت يوريكو بمعطفها من فرو الفيزون على كتفيها أثناء الغداء.. وكان عقد ثقيل مصنوع من سلسلة مذهّبة كان يذكّر بحبال عربات الميكوشي[1] في أعياد الشينتو تتأرجح على صدرها. وكانت قد تخلّصت من العالم الخفيف الذي يستمتع فيه الناس بقضايا الحب، بل إنها كانت قد تخلّصت من طموحها الخاص. والآن، كانت تبدو كعاملة ممتهنة نشيطة تستريح بصمت وتجلس أرضاً في الشمس على الخضير اليابس بين عملين مرهقين، وكانت مثلها راضية.

وبالرغم من أن بواعث الحزن أو الفرح نادراً ما كانت تبدو للمراقب مقنعة، فقد كانت يوريكو تدبّر أمرها لتساعد عائلة من عشرة أشخاص، وكانت حيويّتها في مثل هذه اللحظات تغدو مدهشة. كانت تستمد قوتها من الشيء الذي كانت تعيره الأقل اهتمامها: جمالها.

وانتاب فوزاكو فجأة شعور بأن يوريكو ستغدو كاتمة أسرار مثالية. ففتحت بارتياح قلبها. وكانت سعادتها، وهي تروي قصتها تملأها نشوة إلى حد أنها كانت تكشف فيها جميع التفاصيل.

ـ هل أعطاك دفتر الشيكات الذي يظهر فيه إيداع مليوني ين وطابع ختمه؟

ـ لقد رفضت، ولكن...

ـ لم يكن هناك ما يدعو للرفض. كانت البادرة من رجل يليق

(١) الميكوشي، عربات ثقيلة تسير في أعياد الشنتو، تجرّها حبال ذات جدائل غليظة.

بهذا الاسم، إن المبلغ لا يعني بالنسبة لك الشيء الكثير، ولكن النية كان لا بد أن تفرحك. أليس عجيباً أن يكون بعد مثل هذا الرجل؟ لا سيا أن الرجال الذين يحومون حولي هم جميعاً من المنتهزين الذين يختلسون كل ما يجدونه، أتمنى أن تفهمي أنك محظوظة».

فوجئت فوزاكو إذ وجدت في يوريكو امرأة عملية، واندهشت حين رسمت الممثلة، بعد أن سمعت القصة كلها، مخطط عمل.

استهلت قائلة: في الدرجة الأولى، وقبل أي زواج، ينبغي أن نبدأ عملية استقصاء بواسطة رجال تحرّ خاصّين. كانت فوزاكو قد أحضرت صورة لريوجي وثلاثين ألف ين. وبالضغط، كانت تستطيع أن تحصل على النتائج في أقل من أسبوع، وبما أن يوريكو كانت تعرف وكالة موثوقة، فقد وضعت نفسها بطيبة خاطر تحت تصرّف فوزاكو لكي ترشدها إليها.

وفي الدرجة الثانية، وبالرغم من أنه لا داعٍ للقلق في الحالة الحاضرة، فإنه من الممكن دائماً أن يكون بحارٌ ما مصاباً بمرض رديء؛ ومن الحكمة، بالنسبة لفوزاكو، أن تذهب مع ريوجي الى مستشفى موثوق به، وأن يفحصا نفسهما ويتبادلا نتائج الفحوصات.

وفي الدرجة الثالثة تأتي مسألة الولد، وبما أن القضية تتعلق بابن وبأب جديد، فإن موضوع زوجة أب غير وارد، وفي هذه الحالة فلا مجال للقلق: وبما أن الولد كان يحترم ريوجي كبطل (وبما أنه كان يبدو لطيفاً للغاية) فإنهما سوف يتفاهمان بالتأكيد.

رابعاً، سيكون من الحماقة الكبرى أن يسمح لريوجي أن يعيش

وقتاً أطول من دون أن يعمل شيئاً. فإذا كانت فوزاكو تنوي يوماً ما أن تسند إلى ريوجي الإدارة العليا لركس، فإنها سوف تكون حكيمة لو أنها درّبته على الأعمال واستخدمت حالاً مساعدته للمتجر، خاصة وأن شيبويا، المدير، قد بدأ يتعب.

خامساً، يبدو من الواضح، حسب مبادرته بدفتر شيكاته، أنه لم يكن هناك أي جشع لدى ريوجي. ولكن الواقع أن أزمة النقليات البحرية كانت قد أحدثت انهياراً في أعمال شركات الملاحة. بالإضافة إلى أنه من المؤكد، أنه كان قد رغب في التخلّي عن مهنة البحّار. وبما أن فوزاكو كانت أرملة، فإن عليها أن تتنبّه لكي لا تخاطر بنفسها. وسيكون عليها أن تلحّ على ضرورة مساواة كاملة لكي تتأكّد من أنها لن تكون أداة تجربة مشينة يجريها عليها الشريك.

كانت يوريكو تشرح ذلك كله باقتضاب بعبارات بسيطة كما لو أنها تخاطب طفلة، الى فوزاكو التي تكبرها مع ذلك. ولقد فوجئت فوزاكو بأن تجد هذا القدر من الحسّ السليم عند امرأة كانت قد اعتبرتها حتى الآن حمقاء.

قالت فوزاكو وهي في قمّة الإعجاب: إنك في غاية البراعة.

ـ عندما نكتشف ما في رؤوسهم، فإن الأمر يبدو سهلاً. كان هناك رجل فكّرت أن أتزوّجه. ففتحت قلبي إلى أحد مخرجينا، لا بد أنك تعرفينه: موراغوشي تاتسويو، وهو واحد من أجدر العارفين في المهنة.. لم يشر لا إلى عملي، ولا إلى شعبيتي ولا إلى عقدي. اكتفى بأن أبتسم ابتسامة مليئة بالتعاطف، وهنأني ثم أعطاني جميع النصائح التي أعطيتك إياها. وبما أنني وجدت ذلك مزعجاً، فقد حمّلته السخرة

كلها. وبعد أسبوع، علمت أن الرجل المعني كان يعاشر ثلاث نساء، وأنه كان لديه ولدان غير شرعيين. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان مصاباً بمرض خطير. ولو أننا كنا قد تزوّجنا فقد كان سيطرد عائلتي ويعيش من دون أن يعمل شيئاً. ماذا؟ هناك رجال على هذه الشاكلة، بالطبع، هناك استثناءات. ولكن...».

ومنذ ذلك الوقت، احتقرت فوزاكو الممثلة. وفي الحقيقة فإن نفورها قد تضاعف بسخط كان ينبع من أعماق طبعها كبورجوازية شريفة. ولقد رأت في تلميحات يوريكو ليس فقط هجوماً يستهدف ريوجي، ولكن أيضاً إهانة لعائلتها التي كانت تتمتّع بشرفية كاملة لتربيتها، وإهانة لتقاليد عائلة «الكورودو» التي لا عيب فيها، مما يلحق احتقاراً بزوجها المرحوم.

قالت فوزاكو في نفسها وهي تعضّ على شفتيها إن وجهتي نظرهما كانتا مختلفتين تماماً في الأساس، وأنه لم يكن هناك أيّ سبب لكي يجعل قصة حبها تدخل في إطار قصص يوريكو المألوفة: «عاجلاً أم آجلاً، ينبغي لي أن أشرح لها الوضع. إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً في هذا الموضوع في الوقت الحاضر لأنها ليست سوى زبونة، لا صديقة».

ولم تتنبّه فوزاكو إلى أن الوضع الذي فرضه عليها غضبها كان متناقضاً مع الهوس العنيف الذي اجتاحها الصيف الماضي. وفي الحقيقة، كان غضبها أقل بالنسبة لريوجي مما هو بالنسبة لما كانت قد فعلته منذ موت زوجها لتكوّن منها ومن ابنها عائلة سويّة. وكانت تلميحات يوريكو تشبه ما كانت أكثر ما تخشاه فوزاكو: المأخذ الذي كان الناس يوجهونه لها بسبب تهوّرها. والآن وبما أن هذا التهوّر سوف يعوّض عليه بخاتمة سعيدة، فإن يوريكو قد فاهت بكلمات سيئة

الدلالة، عن قصد. كانت فوزاكو غاضبة من أجل زوجها المرحوم، من أجل عائلة كيرودا، من أجل نوبورو. وبالاختصار، وبسبب جميع أنواع الغضب التي يولّدها التخوّف، فقد أصبحت شاحبة بالتمام: «لو كان ريوجي رجلاً وسخاً، وبأفكار منغلقة، ما كنت حمقاء إلى هذا الحد لأحبه. فأنا أملك عينين جيدتين لأميّز بين ما هو جيد وما هو سيء..».

وكانت هذه الأفكار تتعادل ونفي تحمّسها السري أثناء الصيف. وبالمقابل، فبعد أن كانت همساً داخلياً، أخذت فجأة تفور، وتنتفخ حتى نقطة الانفجار.

ولم تلاحظ يوريكو، وهي تحتسي بهدوء قهوتها بعد الغداء، اضطراب صديقتها. وفجأة، وكما لو أنها كانت تتذكر شيئاً ما، أراحت فنجانها على الصحفة، ورفعت أسفل كمها الأيسر وأظهرت الداخل الأبيض لمعصمها.

«عديني أن تحتفظي بدقة بهذا السر. لا أريد أن أسرّ به لأحد غيرك على الإطلاق، يا ماما، إنها ندبة الزمن الذي كنت سأتزوج خلاله. لقد حاولت أن أنتحر بشفرة حلاقة».

قالت فوزاكو: وهي تعود فجأة لنفسها وقد قرّرت أن تستعمل الوسائل الكبرى لتساعدها في الاعتراف: أوه! لم يظهر ذلك في الصحف!

ـ لا. لأن السيد موراغوشي قد ركض في كل مكان ليخنق الخبر. ولكن ذلك نزف بشكل فظيع.

ورفعت يوريكو ذراعها، ووضعت بحنو شفتيها على معصمها الذي

وضعته تحت عيني فوزاكو. ينبغي أن ينظر إليه عن قرب ليرى المرء بعض ندبات خفيفة بيضاء غير منتظمة لجروح لا بد أنها كانت سطحية، وتركت فوزاكو لا مبالية. وعمدت عن قصد لتفحص المعصم بعناية من دون أن يبدو عليها أنها اكتشفت أيّ شيء.

قالت بود، وقد استعادت شخصيتها كمالكة لمتجر ريكس. وقطّبت حاجبيها:

ـ آه، يا للأسف! هل تتصورين كم من الناس في اليابان كانوا قد بكوا لو أنك كنت قد نجحت! جسد جميل كجسدك! تبدّدينه! عديني بأن لا تحاولي ذلك مرة أخرى.

ـ بالطبع، ماما، لن أفعل شيئاً سخيفاً كهذا الأمر مرتين! إنني لا أعيش إلا من أجل هؤلاء الأشخاص الذين تقولين إنهم كانوا سيبكون موتي. هل كنت ستبكينني ماما؟

قالت فوزاكو بهدوء مشفق: أن أكون سأبكيك، هو أقلّ مما ينبغي قوله. ولكن لنترك هذا الحديث.

كانت فوزاكو، عادة، تعتبر الاستعانة بوكالة للتحريات الخاصة، كما سبق ليوريكو أن أغرتها بها، دليلاً سيئاً كبداية، ولكنها الآن، رغماً عن ذلك، تريد أن تتلقى تقريراً إيجابياً.

ـ إذن، غداً عليّ أن أذهب مع المدير إلى طوكيو من أجل الأعمال. عندما ننتهي من أعملنا، سأتخلّص من المدير وسأذهب وحدي إلى الوكالة المذكورة. هل باستطاعتك ان تعطيني كلمة توصية على إحدى بطاقاتك؟

ـ «بكل سرور». وأخرجت يوريكو القلم الذي اشترته لتوّها

وبحثت في حقيبتها المصنوعة من جلد التمساح وأخرجت منها بطاقة صغيرة بيضاء.

وبعد ثمانية أيام، أجرت فوزاكو مكالمة تلفونية طويلة مع يوريكو. وكان في لهجتها اعتزاز. آه! إنه لنجاح باهر! إن التقرير مثير جداً. ثلاثون ألف ين، هذا ليس غالياً، هل أقرأه لك؟ هل لديك لحظة؟ بصداقتنا، أرجوك أن تسمعي هذا:

« تقرير عن استقصاء خاص. وما يلي هو نتيجة التحقيق على النقاط المشار إليها من قبل الزبون.

« فيما يتعلّق بتسوكازاكي ريوجي. الأسئلة المطروحة: صحة تفاصيل سيرة حياته. العلاقات النسائية. هل يعايش نساءً. الخ. السيرة: ليس هناك أي فرق مع المعلومات التي تملكينها، الأم، مازاكو، قد توفيت عندما كان في العاشرة من عمره. والأب، هاجيم، كان موظفاً في بلدية دائرة قضاء كاتسوشيتا، في طوكيو، ولم يتزوج من جديد بعد موت زوجته، وكرّس نفسه ليربي ويعلّم ولده الوحيد. أما البيت العائلي فقد دمّر اثر غارة جويّة في آذار ١٩٤٥. أما أخت المعني، يوشيكو، فقد ماتت بالتيفوس في شهر أيّار من العام نفسه، والمعنى مجاز في كلية البحرية التجارية ».

وهكذا، فإن التقرير يتتابع بهذا الشكل. آه، كم هو سيء التحرير. إنني أقفز... » وفيما يتعلّق بعلاقاته النسائية، ليس متورّطاً في الوقت الحاضر في قصة حب مع نساء ولا شيء يسمع بالاعتقاد بأنه سبق له أن عاشر امرأة أو أنه كانت لديه في وقتٍ ما علاقة مهمة أو طويلة.

« كيف؟ إنها العبارة المستعملة... »

ـ والمعني يكشف عن ميول غريبة، ولكنه شديد الحماس للعمل وحس المسؤولية لديه مرتفع جداً. وصحته جيدة جداً. لم يكن أبداً مريضاً بمرض مقلق. وبعد متابعة التحقيق، لم يثبت إن كان لديه لا مرض عقلي، ولا أي مرض وراثي في عائلته القريبة.

« هناك شيء آخر: « ليست هناك ديون. لم يطلب أبداً تسليفات على معاشه ولم يستدن إطلاقاً من أرباب عمله. كل شيء يشير إلى وضع مالي ممتاز. والمعني معروف بحبّه للوحدة، ولم يكن يبدو مرتاحاً في المجتمع، وهذا ما يفسّر عدم انسجامه الشديد دائماً مع زملائه.

« وليس لهذا الأمر أهمية، في الوقت الذي يتفاهم معي جيداً. آه! إنها زيارة؟ إنني أقطع. أردت فقط أن أشكرك للطفك الشديد، إنني أسيرة فضلك إلى حد كبير. أرجو أن نلتقي قريباً في المتجر. ريوجي؟.. نعم يأتي كل يوم منذ الأسبوع الأخير، تماماً كما سبق أن أوحيت بذلك. إنه يودّ أن يتدرّب. سوف أقدّمه لك في المرة القادمة عندما تأتين. أجل.. أجل.. لن أخلف.. وشكراً بعد. والى اللقاء.

الفصل الرابع

كانت الكليّة قد فتحت أبوابها من جديد في الحادي عشر من الشهر، ولكن الصفوف انتهت عند الظهر. ولم تكن الشلّة قد اجتمعت مرة واحدة أثناء العطلة. والقائد نفسه لم يكن موجوداً في المدينة. كان أهله قد اصطحبوه في سفر إلى كانسي[1]. وإذ اجتمعوا أخيراً بعد وقت طويل، بحثوا عن مكان مقفر يصلح للّقاء، وقرّروا بعد أن تناولوا الغداء في الكليّة أن يكون نهاية رصيف مرفأ ياماشيتا حيث لم يسبق أن وُجد أحد أبداً. «أنتم تعتقدون على الأرجح أن المرء يتجلّد هناك! كل الناس يعتقدون ذلك، ولكن هذا خطأ. وفي الحقيقة، هناك ملجأ جيد من الهواء. وعلى كل حال، سوف نذهب إليه لنرى».

منذ الظهر كانت السماء قد امتلأت بالغيوم وأخذ الجو يبرد. وكانت ريح الشمال القادمة من البحر تهبّ رأساً عليهم في سيرهم نحو نهاية المرفأ وتجعلهم يديرون وجوههم جانبياً.

وكانت أعمال استرداد أرض الشاطىء قد انتهت ولكن أحد الأرصفة العائمة لم يشد إلاّ إشادة نصفية؛ وكان البحر الرمادي يتموّج، وكانت عوّامتان أو ثلاث مغسولة بلا انقطاع بالأمواج تظهر وتختفي بالتناوب. ولم يكن يرى في هذه المنطقة المعتمة من المعامل إلاّ

---

(١) كانسي: منطقة في كيوتو: وأوساكا في الغرب.

المدخنات الخمس لمعمل كهربائي، ودخان مصفرّ يطفو فوق خط سقوف المعامل التي كانت تلطّخها . وعن يمين العوّامة الطافية ويسارها والتي هي قيد البناء، كانت أصوات العمال الذين يسجلون الأزمان في أعمالهم تتصادى على الماء .

كانت المنارتان الحمراوان والزرقاوان، اللتان كانتا أبعد من العوّامة وإلى يمينها، تحتلاّن مدخل المرفأ وتبدوان، كما تراءتا من هنا، كأنهما عامود واحد .

وكان ثمّة إلى يمين المرآب، قارب مسطح قديم وزنه خمسة أو ستة أطنان، وعلم وطني قديم أصبح رمادي اللون يتدلى الى الخلف. ومن الناحية الأخرى للمرآب، كان قارب غريب يرسو في المرفأ . وكانت مزلاجاته البيضاء المرتفعة فوق السقيفة تتأرجح، وتشكّل المرآى اللامع الوحيد في هذا المشهد الداكن.

ورأوا على الفور الملجأ الواقي من الهواء الذي كان قد تكلّم عنه القائد . وكانت تتكدّس بين السقيفة والرصيف، كومة من الصناديق الخضراء والمفضّضة، من السعة بحيث يمكن لكل واحدة منها أن تخبىء عجلاً . كانت صناديق من الخشب المعاكس مطوّقة بأطواق فولاذيّة وتحمل أسماء المصدّرين الأجانب. وكانت متروكة هنا، مرميّة بإهمال.

وما أن اكتشف الصبية الستة هذه الكومة من الصناديق، حتى ارتموا باندفاع بين فُرجات الصناديق، وهم يصطدمون رؤوسهم عندما يلتقون، ويتراكض البعض وراء الآخر، ويتماسكون، ويمضون وقتهم وهم يلعبون كأولاد حقيقيين. كانوا كلهم غارقين بالعرق عندما

اكتشف القائد في قلب الكومة صندوقاً كبيراً يلائمه، وقد سقط جانباه، ولكن أطواق الفولاذ كانت سليمة وكان محتواه قد أُفرغ حتى آخره، ولم يكن يظهر إلاّ الخشب المعاكس.

وأطلق القائد صرخة تشبه صرخة صُرب ليجمع أولاده المبعثرين. جلس ثلاثة منهم على قعر الخشب المعاكس، وبقي ثلاثة واقفين في الزوايا متماسكين بالأذرع على أطواق الفولاذ. كان لديهم الشعور أن عربتهم الغريبة ستعلّق بذراع مرفاع سينتصب في سماء الشتاء الباردة.

وقرأوا عالياً الواحد تلو الآخر النقوش التي كانت تغطي جدران الصندوق: «لقاء في حديقة ياماشيتا». «لننس كل شيء ولا نهتم بالباقي». وكآبيات شعر تتتالى في قصيدة كلاسيكية منظومة، كتبها شعراء مختلفون، كان كل سطر محاكاة أحلام وآمال عُبّر عنها في السطر السابق: «نحن فتيان، نريد الحب». «لننس النساء، من هو بحاجة إليهن؟» «أحلم دائماً بك». «على قلبي الأسود، ندبة سوداء». «وسط هذه النقوش، تكمن روح بحّار شاب مضطربة». «لقد تغيّرت. إنني رجل». كانت سفينة شحن مرسومة في زاوية ترسم أربعة أسهم. السهم الأيمن يشير إلى يوكوهاما، والسهم الأيسر يشير الى نيويورك، والسهم الأعلى يظهر السماء، والسهم الأسفل الجحيم. أما كلمات «انس كل شيء» فقد كانت محاطة بدائرة كبيرة، وكانت صورة المؤلف، وهو بحّار بعينين كئيبتين، مرسومة: كان يرتدي سترة ذات قبّة نصف مرفوعة وكان يدخّن غليون بحّار. وكان كل شيء ينطق بالوحدة، وكان جبين البحّارة النافد الصبر ينمّ عن كبرياء وكآبة مرهقة. باطل بالتمام. ومقلوب أكثر مما ينبغي، عناد حزين للتباهي بقابليته ليكون الرجل الذي كان يحلم أن يكونه. «كل هذا،

أكاذيب». قال القائد بغضب. قلّص يـده البيضـاء والضعيفـة، يـد الولد، وجعل منها قبضة ضرب بها الجانب الداخلي للمنقوشات. هذه اليد الصغيرة كانت للصبية الستـة رمـز اليـأس. والآن كـانـت حتى الأكاذيب تطردهم. ولكن ألم يكن القائد قد قال إن بطاقة تحمل كلمة «استحالة» كانت ملصقة عرضاً بالعالم وأنهم وحدهم كانوا قادرين على تمزيقها نهائياً؟

«وبطلك، ماذا يفعل يا رقم ثلاثة؟ لقد سمعت أن الرجل قد عاد».

وأحس القائد بالعيون كلها تحدّق به وكان صوته جليديّاً، مليئاً بالسمّ. وفيما كان يتحدّث أخرج من جيب معطفه قفّازات لزجة من الجلد المفرّى لبسها وهو يكشف بطانيتها ذي اللون الأحمر الناري.

قال نوبورو بلا اكتراث: «لقد عاد» وكان يودّ جيداً ألاّ يُطرق هذا الموضوع.

ـ هل قام صاحبك بعمل مدهش خلال رحلته الأخيرة في البحر؟

ـ أجل قال إنه كان قد تعرّض لعاصفة بحرية في «الكرايبب».

ـ هذا غير ممكن. أفترض أنه كان قد تبلّل كفأر يغرق، كاليوم الذي كان قد أخذ فيه حماماً بارداً عند نبع ماء الشرب في المنتزه.

أخذ الجميع يضحكون لكلمـات القـائد هذه ضحكاً لم ينتهوا منه. وأحس نوبورو أن هذا الضحك جعله موضع سخرية ولكنه استرد كبرياءه في الحال واستطاع أن يعدّد للرئيس وقائع ريوجي وحركاته اليومية، بصوت رتيب، كما لو أنه كان يصف عادات حشرة من الحشرات.

وحتى السابع من كانون الثاني كان ريوجي ما يزال يتسكّع في البيت. وعندما علم نوبورو أن السفينة راكويو كانت قد أبحرت في الخامس من الشهر أخذته صدمة. هذا الرجل الذي كان يشكّل جزءاً هاماً من راكويو، والذي كان عنصراً من لمعان المركب عند رحلة الصيف، هذا الرجل كان قد انسلخ عن هذا المجموع الرائع، وشطب بملئ إرادته من أحلامه خيالات المراكب والإبحار. وبالطبع، لم يكن نوبورو قد ترك ريوجي أثناء هذه العطلات، مستمعاً إلى جميع أنواع قصص الأسفار في البحر، مكتسباً معرفة في الإبحار لا يمكن لأي أحد آخر أن يدّعي معرفتها. غير أن نوبورو كان يرغب في هذه المعرفة أقل مما كان يرغب في نقطة خضراء سيتركها ريوجي بعده عندما يتوقف ذات يوم جميل عند منتصف قصة، ويقفز من جديد نحو البحر.

لم تكن خيالات البحر والمراكب والإبحار تكمن إلاّ في هذه النقطة الخضراء اللاّمعة. لكن كل يوم ينقضي كان يلصق بريوجي روائح اليابسة اليومية البغيضة: رائحة البيت، رائحة الجيران، رائحة السلام، رائحة السمك المشويّ، رائحة التحيّات، رائحة الأثاث الذي لا يتحرّك أبداً، رائحة دفاتر حسابات البيت، رائحة الرحلات في نهاية الأسبوع... وجميع الروائح الآسنة المتعلّقة بسكان الأرض.

بدأ ريوجي يعمل بجدّ.. ولكي يثبت في ذهنه ثقافة الأرضيين أخذ يلتهم كتباً أدبية لم تكن فوزاكو تشير له بها ومجموعات من كتب عن الفن. كما أخذ يدرس المحادثة الانكليزيّة بواسطة درس كان يُعطى كل مساء في التلفزيون، أو نصّ بلا عبارات نوتية، وكان يستمع إلى دروس كانت فوزاكو تعطيه إيّاها في إدارة متجر. وأخذ

يرتدي ثياباً انكليزية « ظريفة » كانت فوزاكو تحضرها دائماً من المتجر، ويوصي لنفسه على مقاسه ثياباً غريبة ومعطفاً. وبدءاً من الثامن من كانون الثاني أخذ يذهب كل يوم مع فوزاكو إلى المتجر. في ذلك اليوم، كان قد ارتدى طقماً انكليزياً حديث الطراز كان قد أوصى بالتعجيل لإنجازه في الوقت المحدّد. وكان يبدو مليئاً بالحماس.

« بالحماس »، كان نوبورو يلفظ الكلمة كما لو أن مكعّباً من الثلج كان على طرف لسانه. « الحماس، ردد رقم ٢ وهو يقلّده. وعند سماع هذه الكلمات، كفّ الأولادُ عن الضحك. كانوا قد فهموا شيئاً فشيئاً أن الوضع كان قد أصبح خطيراً.. وبدا لهم أن هذه اللحظة تسجل نهاية حلم مشترك وتنبىء بمستقبل مليء بالحيل.. ربما، بعد كل شيء، لن يحدث أي شيء بمثل هذه الأهمية في هذا العالم. وفي هذه اللحظة، لمحوا من خلال فسحة ضيّقة بين صندوقين مركباً ذا محرّك كان يجتاز المرفأ وهو يفجّر أمواجاً عالية بيضاء. وظلّ صوت محرّكه يُسمع طويلاً بعد أن غاب عن الرؤية.

« رقم ٣ » ـ قال القائد وهو يستند بلا اكتراث على جدار الخشب المعاكس ـ أما تزال بعد راغباً في تسمية صاحبك بطلاً ؟

وأحدثت هذه الكلمات على نوبورو تأثير حمّام بارد. فانطوى على نفسه. وبأصابع قفّازية بدأ يداعب رأس نعليه. وصمت. وعندما قرّر أن يتكلم، كان جوابه غامضاً. « أنت تعلم، إنه يحتفظ دائماً في خزانته بقبعته وسترة الملاحة وحتى قميص العمل القديم، المتّسخ تماماً. ولا يبدو عليه أنه يريد أن يتخلى عنها ».

وكعادته، لم يكن القائد يستمع إلى أجوبة مرافقيه. قال بصوت

واضح وجليديّ: « ليس هناك إلاّ وسيلة واحدة لنجعل منه بطلاً جديداً. لا يمكنني بعد أن أقول لكَ كيف، ومع ذلك، فسيأتي الوقت وعمّا قريب».

عندما كان القائد يتحدّث، لم يكن لأحد أن يسعى إلى تعميق معنى كلماته. وإذ غيّر بلا صعوبة الموضوع، حوّل الحديث إلى نفسه « هذه المرة، سأحدثكم عني. في هذه الرحلة في كانون الثاني، لم يكن باستطاعتي من الصباح إلى المساء أن أقوم بخطوة من دون أن أصطدم بعجوزي وعجوزتي. الآباء: نتحدث عنهم، كائنات تبعث على القيء! إنهم الشرّ مجسّماً. إنهم محمّلون بكل ما هو قبيح في الإنسانية. لا يوجد أب مستقيم. ذاك أن دور الآباء سيء. الآباء الدقيقون، الآباء الناعمون، الآباء المعتدلون، هم سيئون تماماً كبعضهم البعض. إنهم يسدّون لنا الطريق في الوجود بأن يتخلّصوا ويلقوا علينا مركبات نقصهم، وأشواقهم التي لم تتحقق، وأحقادهم ومثلهم العليا، ونقائصهم التي لم يبوحوا بها قطّ لإنسان، وأخطائهم، وأحلامهم العذبة، وحِكَمهم التي لم يكن عندهم الشجاعة يوماً ليتطابقوا معها. والذين هم الأكثر لامبالاة، كأبي، لا يشذّون عن القاعدة. فضميرهم يجرحهم لأنهم لا ينتبهون أبداً لأولادهم، وفي النهاية يودّون لو يفهمهم أولادهم.

« في شهر كانون الثاني ذهبنا إلى آراشياما، وفيما كنا نجتاز « جسر القمر »، طرحت سؤالاً على أبي: « أبي هل للحياة من هدف؟ هل تفهم ما أقصد إليه؟ هل تستطيع يا أبي أن تعطيني سبباً واحداً تستمر من أجله في أن تعيش؟ أليس من الأفضل أن يختفي المرء بسرعة؟ » ولكن مثل هذا الإلماح من الطراز الأول لا يمكن أن يبلغ أبداً رجلاً

كهذا. دُهش، وحملق فيّ ونظر إليّ بإصرار. إنني أكره هذا النوع من الدهشة المضحكة لدى إنسان راشد. وعندما أجابني، ما تظنون أنه قال لي؟ «يا بني، لا يوجد إنسان يستطيع أن يجيبك عن هدف الحياة، إن على كل امرء أن يخلق لنفسه هدفاً لها».

«أيّ درس أخلاقي وتافه هو هذا الدرس! كان قصاره أن يضغط على الزر ليخرج واحداً من الأشياء التي يُفترض أن يقولها الآباء. هل سبق لكم يوماً أن نظرتـم إلى عيني أب في مثل تلك اللحظة؟ إن الآباء يجذبون كل ما له طابع خلاّق، فهم يصغّرون كل شيء في العالم. والآباء هم آلات لإخفاء الحقيقة، وأعضاء يقدمون أكاذيب للأطفال، والأسـوأ مـن ذلـك أنهم يتصـوّرون في أعماق ذواتهم أنهم يمسكـون بالحقيقة. إن الآباء هم ذباب العالم، إنهم يرصدوننا وعندما يلاحظون شيئاً ما يفسد فينا يهرعون، ذباب منفِّرون يشيعون في العالم أنهم مرتبطون بأمهاتنا. وليس هناك من شيء لا يقومون به ليفسدوا حريتنا وطاقاتنا. لا شيء لا يفعلونه ليحموا المدن الوسخة التي بنوها لأنفسهم.

ـ إن أبي يصر على أنه لا يريد أن يشتري لي بندقية على الهواء.

تمتم رقم ٣ وذراعاه تحيطان بركبتيه:

ـ وهو لن يريد أبداً. ولكن حان الوقت لتفهم أن الأب الذي يشتري لك بندقية على الهواء هو مثل سوء الأب الذي لا يريد أن يشتري لك واحدة.

قال رقم ١: إن أبي ضربني البارحة أيضاً. إنها المرة الثالثة منذ رأس السنة.

ردّد نوبورو بذعر: ضربك؟

ـ صفعني بظاهر يده، ولكن يحدث له أن يضرب بقبضته.

ـ ولماذا لا تقاوم؟

ـ لأن ذراعيّ لا تملكان القوة لذلك.

ـ إذن، عليك..» كان وجه نوبورو أحمر تماماً فصرخ: «ألا تستطيع أن تزبّد خبزه المحمّص بسيانور البوتاسيوم أو شيء من هذا القبيل؟

ـ هناك أشياء أفظع من أن يُضرب المرء.

قال القائد وهو يقوّس شفته الحمراء الرقيقة: هناك أشياء أخرى أسوأ ولكنك لا تعرفها. إنك محظوظ. وبما أن أباك قد مات، فإن وضعك يُحسد. ولكن يجب أن تعلم أيضاً الشرّ الكامن في العالم، وإلاّ فلن تكتسب قطّ قدرة حقيقية.

قال رقم ٤: إن أبي يعود إلى البيت دائماً في حالة السكر ويعامل أمي بشراسة. مرة ساندت أمي، صرخ: «انشغل بما يعنيك. إنك لن تنتزع من أمك هذه اللذة» ولكني الآن أعرف أن لأبي ثلاث عشيقات.

قال رقم ٥: أبي لا يفعل شيئاً غير الصلاة لله.

وعليه سأل نوبورو:

ـ ماذا يطلب في صلواته؟

ـ الأمان للعائلة، السلام على الأرض، الازدهار، وأشياء من هذا القبيل. وهو يعتقد بأننا أسرة نموذجيّة، والمصيبة أنه جرّ أمي لتفكر

مثله. فالبيت كله نقيّ، شريف، وكل واحد مليء بالنوايا الصالحة. وفي البيت يتوصل أحدهم إلى أن يقدِّم طعامه للفئران المختبئة في السقف لكي لا ترتكب خطيئة السرقة. وفي البيت، عند الانتهاء من الأكل، يلحس الجميع صحنهم تماماً لكي لا تزول نِعم الله.

ـ هل يجبرك والدك على أن تفعل ذلك؟

ـ إنه لا يجبر أبداً على شيء. إنه يبدأ دائماً بعمل هذه الأفعال القذرة، وإذ ذاك فإن الجميع ملزمون بتقليده. إنك محظوظ، يا نوبورو. ينبغي عليك أن تسعد بذلك.

كان نوبورو مغتاظاً لكونه مستثنى من الجرائم التي كانت تعدي الآخرين. ولكن في الوقت نفسه، كان يرتجف إذ يفكر أن السعادة التي كانت قد هبطت عليه بفعل الحظ كانت لها هشاشة الزجاج. وأن نقاءها كان رقيقاً رقّة الهلال. بفضل خيرات مَن كان يعيش معفىً من الشر؟ كانت براءته قد ألقت حول العالم شبكة معقّدة من الهوائيّات، أتراها لن تُقْلَعَ ذات يوم؟ متى يفقد هذا العالم ضخامته ويحبسه في قميص المجانين؟ هذا اليوم، كان يعرف ذلك، لم يكن بعيداً... كان نوبورو قد بدأ يحس شجاعة مجنون تتفجّر في أعماقه.

كان القائد قد قطّب حاجبيه الشبيهين بهلال في يومه الثالث، وتفادى أنظار نوبورو لينظر عبر فجوة بين الصناديق إلى دوائر الدخان والغيوم فوق البحر الذي كان له لون الرماد، عاضاً بأسنانه الصغيرة اللامعة على البطانة الحمراء لقفازه الجلديّ.

الفصل الخامس

تغيّر موقف أمـه. أصبحـت أكثر محبّـة، وأحـرص على إرضـاء رغباته. وكان واضحاً أن ذلك كان مقدمة لشيء سيكون من الصعب عليه القبول به.

وذات مساء، كان نوبورو قد تمنّى لأمه ليلة طيّبـة وصعد إلى غرفته. «المفتاح! المفتاح!». كانت هي أمه التي تصعد السلم خلفه وهي تمسك بيدها حزمة مفاتيح. ووجـد نـوبـورو أن الصيحـة غير طبيعية بعض الشيء. لقد كان من عادتها أن تصعد معه كل مساء وتقفل من الخارج باب غرفته. وكانت مرحة في بعض الأمسيات، وكئيبة في بعض أمسيات أخرى، ولكنها لم تكن تستعلم عن المفتاح ولا مرة واحدة.

إذ ذاك، وكان ريوجي الجالس في الصالون مرتـديـاً معطفه ذا التخطيطات الكستنائية، ويقرأ كتاباً يحمل عنوان «كيف يُدار متجر»، رفع ريوجي رأسه كما لو كان قد سمع صـوت محدثٍ ونـادى أمـه باسمها.

أجابت وهي تستدير نصف استدارة على السلم «ماذا؟» كـانـت عذوبة صوتها المدغدغة تبعث في نوبورو الارتعاش. «لو تتخلّين الآن عن إقفال الباب بالمفتاح؟ إن نوبورو لم يعد طفلاً. إنه يعرف ما هو جيد وما هو شرّ. أليس كذلك، يا نوبورو؟»

كان الصوت الجهوريّ ينبعث من غرفة الجلـوس.. وفي الطـابـق الأول، في الظلمة، لم يكن نوبورو يأتي بأية حركة، لم يجب بكلمة واحدة، كانت عيناه تلمعان كعيني حيوان صغير ملاحق ومحاصر. أما أمه، التي احتفظت بعذوبة ذهنية كالزيت، فإنها لم توبّخه حتى ولا لقلّة أدبه.

قالت وهي تقوده إلى غرفته: حسناً هل أنت مسرور؟ وتأكدت من أنه لم يكن قد نسي شيئاً للغد؟ وفحصت كتبه المدرسية وساعات الدروس، وتأكّدت من أن أقلامه كانت مبرية جيداً. وكان ريوجي قد ساعده في عمل فروض الرياضيات؛ وقامت فوزاكو بدورة في الغرفة وهي تتفحص بعناية أثواب نوبورو الليلية. كانت مشيتها من الخفة وحركاتها من الرشاقة بحيث كانت تذكّر برقصة تحت الماء. وأخيراً تمنت له مساء طيباً وذهبت. ولم يُسمع صوت المفتاح في القفل.

تُرك وحيداً، فأحسّ نوبورو نفسه متضايقاً. كان قد دخل في المسرحية التي تُلعب، ولكن ذلك لم يكن يعزّيه.

كان ريوجي وشريكته قد رميا فخّاً للأرنب. وكانا يأملان أن يتحوّل غضب الحيوان الأسير وروائح جحـره المألـوفـة إلى استسلام ويدفع إلى التسامح كائناً يستسلم للأسر. ولكنه كان فخّاً صغيراً لن يؤخذ فيه من لم يعد بعد أرنباً.

كان انزعاجه من أن يجد نفسه في غرفته التي لم تُغلق بالمفتاح يبعث فيه الرعشة حتى بعد أن زرّر منامته حتى العنق. هؤلاء الأشخاص قد بدأوا تربيته. تربية مريعة، هدّامة. كانوا يريدون أن يعجّلوا نموّ صبيّ سيكون عما قريب في الرابعة عشرة من عمره ليجعلوا منه راشداً.

النموّ أو بالأحرى، على حدّ قول القائد، التعفن. كان دماغه المحرور يلاحق حلماً مستحيلاً: ألا يمكنني، وبالرغم من أنني قابع في غرفتي، أن أكون في الخارج وأغلق غرفتي بالمفتاح؟

بعد بضعة أيام، وفيما كان عائداً من المدرسة، وجد ريوجي وفوزاكو وقد ارتديا ثياب السهرة. قالا له إنهما يريدان اصطحابه لمشاهدة فيلم بسبعين ميللمتراً كان نوبورو يحرص على مشاهدته. وقد سرّ سروراً كبيراً. وبعد السينما قصدوا مطعماً في المدينة الصينية وتناولوا العشاء في صالون صغير في الطابق الأول حيث كانوا وحدهم. كان نوبورو يعشق المطبخ الصيني وكان يحب هذه الطاولات المستديرة التي يصفّ في وسطها بطريقة دائرية عدد من الصحون.

وعندما وضعت جميع المآكل على الطاولة، أشار ريوجي بعينيه إلى فوزاكو. على الأرجح أنها كانت قد قدّرت أنها بحاجة إلى تأثير الكحول من أجل هذه اللحظة، ورشفت بضع جرعات من خمر صيني. كانت عيناها قد احمرّتا.

لم يكن نوبورو قد عومل قط من قبل الراشدين بمثل هذا الحب، ولم يكن البالغون قد أظهروا قط بحضوره ألواناً من التردّد ملحوظة إلى هذا الحد. وكان ذلك يبدو وكأنه يشكل جزءاً من طقس كان خاصاً بهم. كان يعلم ما الذي سوف يقولونه له، وكان مشمئزاً من ذلك. ولكنه كان يُسرّ لرؤية أمه وريوجي، على الطرف الآخر من الطاولة، وهما يعاملانه كما لو أنه كان عصفوراً صغيراً رخص العود، يتوحّش بسهولة ولا يعرف شيئاً. كان هذا مشهداً حقيقياً، وكانا قد وضعا

على صحن، العصفور الصغير الرقيق ذا الريش المشعث وبدوا يبحثان عن الوسيلة ليأكلا قلبه من دون أن يجعلاه يتألم. ولم يكن نوبورو يعترض على الصورة اللطيفة التي كوّنها ريوجي وأمه عنه في مخيلتها. كان من الضروريّ بالنسبة له أن ينصب نفسه كضحيّة.

« هل تسمعني؟ أريد أن تفهم جيداً ما سأقوله لك. إنه شيء هام جداً. سيكون لك أب. والسيد تسوكازاكي سيصبح أباك ».

كان نوبورو يستمع، وكان واثقاً من أنه كان يبدو راضياً تماماً، وحتى هذا الحد كان كل شيء على ما يرام. ولكنه لم يكن قد حسب حساب الحماقة التي لا تصدق لما سوف يأتي.

« إن والدك الحقيقي كان في الحقيقة رجلاً بارزاً.. كنت في الثامنة من عمرك عندما مات؛ عليك أن تحتفظ بذكراه. ولا بد أنك تفتقده كثيراً. ولكنني لا أستطيع أن أقول لك كم شعرت أمّك بأنها وحيدة في خلال السنوات الخمس الأخيرة وأنا أعلم أنك، أنت أيضاً، أحسست نفسك وحيداً. ويجب أن يكون لك كما لي أب جديد.. افهمني جيداً. أنت تعلم كم تمنيت لك كما تمنيت لنفسي أباً مثاليّاً، قوياً، لطيفاً. كان ذلك صعباً لا سيما وأن والدك كان رائعاً إلى درجة بالغة. ولكن ها أنت كبرت، وعليك أن تفهم كم كانت هذه السنوات الخمس قاسية، متوحّدة، نحن الاثنين وحيدين في الحياة... » وبحثت في حقيبتها عن منديل مستورد وأخذت تبكي. كان هذا مضحكاً. « لقد فعلت كل ما كنت أستطيع أن أفعله من أجلك، كل شيء. وليس هناك شخص في العالم لطيف وكامل مثل السيد تسوكازاكي. نوبورو، أطلب منك أن تناديه بابا من الآن فصاعداً. سوف نتزوّج

الشهر القادم. وسيكون لدينا الكثير من المدعوين وسوف نقيم استقبالاً كبيراً ».

كان ريوجي يتجنّب ان ينظر مواجهة إلى وجه نوبورو الهادىء وكان يشرب وهو يضيف السكر المبلور إلى خمره الصيني، ويحركه قبل أن يشربه، ويهيىء لنفسه منه كأساً أخرى. كان يخاف أن يُعتبر، في نظر نوبورو، كرجل وقح.

وكان نوبورو يعلم أنه كان يوحي بالود بمثل ما كان يوحي بالخشية، وكان يسكر لهذا التهديد الهادىء. وعندما كان يدير قلبه البعيد عن التأثر نحو البالغين الاثنين كانت ابتسامة خفيفة تطفو على زاوية فمه، ابتسامة كالتي تُشاهد على وجه تلميذ يأتي إلى الصف بدروس لم تهيّأ بما فيه الكفاية، ولكن بثقة نفس رجل يثب من أعلى شاطىء صخري. وعند الطرف الآخر من الطاولة المستديرة المبرنقة الحمراء، كان ريوجي قد التقط من طرف عينه هذه الابتسامة. وكان هذا سبباً آخر لسوء التفاهم. وكانت القهقهة التي أجاب بها تنم عن الطراز نفسه للفرح المبالغ به مثل الابتسامة التي كان قد وجهها بلا تردد لنوبورو في اليوم الذي ظهر فيه في الحديقة العامة مرتدياً قميصاً مبتلاً بالماء، أمام خيبة الصبي المهان.

« هذا جيد! من الآن فصاعداً سأدعوك نوبورو بلا زيادة. لنتصافح »! ومدّ ريوجي كفه الخشن فوق الطاولة. ومدّ نوبورو بمشقة يده كما لو أنه كان قد سبح تحت الماء. وعبثاً كان يحاول ان يبسطها، فقد كان يبدو له أنه لن يبلغ أبداً طرف أصابع ريوجي. وأخيراً وصل اليها وابتدأت قبضة يد في يد حارة وخشنة. وأحس نوبورو نفسه مأخوذة بدوّامة كانت تحمله نحو العالم الدافىء الذي لا شكل له

والذي كان أكثر ما يخشاه. ذلك المساء، ما أن قالت له أمه مساء الخير ودفعت الباب من دون أن تغلقه بالمفتاح، حتى استولت على نوبورو أفكار مجنونة: « قلب قاس » « قلب قاس كمرساة من حديد »، هذه هي الكلمات التي كانت تتردد بلا انقطاع في فمه. ولكن عليه أن يمسك باليد هذا القلب القاسي قساوة ما كان يفرضه المثل.

وقبل أن تغادر أمه الغرفة، كانت قد أطفأت مدفأة الغاز. والآن كانت الحرارة والبرد يختلطان في هواء فاتر. وكان قد تأخر عن تنظيف أسنانه بالفرشاة، فارتدى بعجلة منامته واندسّ في السرير.

ولكن كراهية مبهمة كانت تدفعه ليواجه كهمّ لا يُحتمل أن يكون عليه ان يسحب كنزة ذات قبة عالية: لم يسبق له قط أن تمنى بمثل هذا القلق عودة ظهور أمه في غرفته، لتذكره مثلاً بشيء كانت قد نسيت أن تقوله. كما أنه لم يسبق له قط أن أحسّ بمثل هذا الاحتقار تجاهها.

وانتظر في غرفته التي كانت تبرد شيئاً فشيئاً. وإذ أنهكه الانتظار استسلم لحلم لم يكن يعني شيئاً. رجعت أمه وصرخت فيه: « كانت كذبة! سامحني إن كنت خدعته لأتسلى. لن نتزوج بالطبع. فلو فعلنا عملاً كهذا، فسوف يصبح العالم فوضى، وستغرق عشرة قوارب في المرفأ. وعلى الأرض سوف يخرج عدد كبير من القطارات عن سككه.. وفي المدينة سيتحطم زجاج النوافذ، وستغدو الورود سوداء كالفحم ».

ولما لم تعد أمه، فقد اخترع نوبورو موقفاً تجرّ فيه عودتها مشاكل ضخمة. لم يكن يستطيع أن يميّز السبب عن النتيجة، ربما كان انتظاره

القلق واللامعقول لأمه مبعثه رغبته في أن يجرحها حتى ولو كان عليه أن يتألم هو نفسه من ذلك..

وكانت الشجاعة التي تدفعه تثير الارتعاش. وأخذت يداه ترتجفان. لم يكن قد لمس الخزانة منذ اليوم الذي كانت أمه قد كفّت عن إغلاق بابه بالمفتاح.. وكان هناك سبب لذلك. فعندما عاد ريوجي صباح ٣٠ ديسمبر، كانت فوزاكو قد أغلقت على نفسها غرفتها. كان قد راقبها وهو ينظر من الثّقب، ونجح في متابعة عناقهما حتى بلوغهما الذروة.. ولكنه أمام خطر الانزلاق في ثقب الخزانة في وضح النهار، والباب غير مقفل، فإنه لم يكن يجرؤ على أن يغامر من جديد.

وأحس نوبورو بلعنات تتصاعد في نفسه وتاق إلى ثورة صغيرة. فلو كان حقاً عبقرية والعالم فراغاً خادعاً، فلماذا لا تكون له القوة ليبرهن على ذلك؟ لم يكن عليه إلا أن يصدع قليلاً فنجان الشاي الذي كان هو العالم الهادىء الذي كانت أمه وريوجي يؤمنان به.

وقفز نوبورو نحو الخزانة وأمسك القبضة. كان عادة يخرج الدرج وهو يحدث أقل ما يمكن من الضجة، ولكنه هذه المرة لم يتردّد في أن يحدث صوتاً. وسحبه بعنف.. وسقط الدرج أرضاً. وأرهف نوبورو السمع، لم تكن تُسمع أيّة ضجة، في أي مكان من البيت.. ليس من خطوة عجلى على السلم.. كان الصمت يسود في كل مكان؛ لم يسمع شيئاً غير ضربات قلبه السريعة. ونظر نوبورو إلى ساعته. لم تكن إلا العاشرة، راودته إذ ذاك فكرة غريبة: سوف يعمل فروضه في داخل الخزانة. إنها السخرية القصوى. وهو لن يستطيع ان يسخر بأفضل من ذلك من حقارة شكوكها.

وأخذ معجماً للألفاظ الانكليزية على الورق المقوّى وضوء جيب وانزلق في فتحة الخزانة. سوف تنجذب أمه بقوة سحرية. وسوف تجده في الثقب وتكتشف نيته. وستشتعل من الخجل والغضب. ستسحبه من الخزانة وستصفعه.. إذ ذاك سيظهر لها معجمه ويقول لها بعيني حمل بريء:

« ما الشيء السيء الذي فعلته؟ كنت أدرس. إن حيّزاً ضيّقاً هو أكثر هدوءاً »!

وكفّ عن تخيل القصة أبعد من ذلك، وضحك عالياً جداً، مختنقاً بغبار الخزانة الذي كان قد تنشّقه.

وفي الوقت الذي انزلق فيه في الثقب، عاد إليه الهدوء. وبدا له مضحكاً أن يكون قد اضطرب، وإذ خرج من كذبته، تصوّر أن درسه سوف يدخل بسهولة في رأسه.. وليس لأن ذلك مهم، فبالنسبة لنوبورو كانت هنا حدود العالم. وبقدر ما يطيل إقامته هنا، كان نوبورو على تماس مع العالم العاري. وباستطاعته ان يهرب بعيداً ما شاء له ان يبعد، ولكن الانفلات إلى أبعد من هذا الثقب كان مستحيلاً.

طوى ذراعه في المجال الضيق وأخذ يقرأ كلمات المعجم، ورقة بعد ورقة، بواسطة قنديل الجيب الخاص به.

التخلي: بالنسبة اليه أصبحت الآن كلمة معروفة.
طاقة: هل كان هناك فرق بينها وبين العبقرية؟

على السفينة: كلمة أخرى تتعلق بالمراكب. وتذكر نداءات مكبّر الصوت على الجسر يوم رجيل ريوجي؛ ثم الصفارة الضخمة، الشبيهة بالذهب وهي تطلق ما يشبه نداء اليأس.

غياب.. مطلق..

واستغرق في النوم ولم يطفىء حتى ضوء الجيب.

كان الوقت متأخراً جداً عندما صعد ريوجي وفوزاكو إلى غرفة النوم. كان اقتراب موعد العشاء قد خفّف من حمل ثقيل وكانا يحسان أن مرحلة جديدة تبدأ.

وحين حان الوقت لدخول السرير استيقظ خجل غريب لدى فوزاكو. كانت أثناء السهرة كلها قد تحدّثت أكثر مما ينبغي عن مسائل هامة، وناقشت أكثر مما ينبغي عواطف عائلية. والآن، وفي الوقت نفسه الذي تحس فيه ولأول مرة إحساساً عميقاً بالمواساة والطمأنينة، كانت تشعر بالضيق أمام شيء غير قابل للتحديد، شيء له معنى القداسة. دخلت السرير مرتدية بذلة سوداء كان ريوجي يحبها، ومن دون أن تحسب حساب تفضيل ريوجي لغرفة مشعة الإضاءة، رجته أن يطفىء جميع الأنوار. وعانق فوزاكو في الظلام.

وعندما انتهيا، قالت فوزاكو:

« كنت أعتقد أنني لن أحس بأي خجل لو كانت جميع الأنوار مطفأة. ولكن ذلك كان على العكس تماماً. فإن العتمة شبيهة بعين ضخمة وأتصور نفسي بأن تلك العين لا تكفّ عن النظر إليّ.

ضحك ريوجي من عصبيتها وألقى نظراته حوله. كانت ستائر النافذة مسحوبة، ولم يكن أي ضوء يأتي من الشارع. كان موقد الغاز

في الزاوية يبعث وميضاً خفيفاً مزرقاً. كان تماماً كسماء ليلية فوق مدينة صغيرة بعيدة. كان نحاس ركائز السرير يهتزّ في العتمة.

توقف نظر ريوجي على خشبية الجدار الذي يفصله عن الغرفة المجاورة، ومن نقطة من النقش في الطرف الأعلى للنحت ذي الطراز القديم، كان خيط من النور يدخل إلى الغرفة.

قال بصوت مرتفع: «ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ هـل من الممكن أن يكون نوبورو ما يزال صاحياً؟ هذا البيت بحاجة إلى تصليحات. غداً سوف أسدّ هذا الثقب».

مدّت فوزاكو كحيّة رقبتها البيضاء خارج السرير وحدّدت نظرها في النقطة التي كانت تسرّب الضوء. وفهمت بسرعة مخيفة. فقفزت خارج السرير، وارتدت روباً واندفعت إلى الخارج من دون ان تنبس بكلمة.

ناداها ريوجي ولكنه لم يتلق جواباً. وسمعها تفتح غرفة نوبورو. وأعقب ذلك صمت. ثم صدمه صوت مخنوق يمكن أن يكون نحيب فوزاكو. ونزل ريوجي من السرير. على أنه كان يتساءل إن كان من الأفضل ان يذهب إليها أو أنه ينبغي أن يبقى هنا. وأخيراً جلس على الديوان أمام النافذة وأشعل سيكارة.

استيقظ نوبورو وهو يحسّ نفسه مسحوباً بقوة خارج الخزانة من عمق سرواله. وللحظة لم يفهم ما كان يجري له. انهالت يد أمه الرخصة والدقيقة على خديه وأنفه وشفتيه بطريقة عشوائية. لم يكن يستطيع أن يفتح عينيه. كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي تضربه فيها أمه.

كان نوبورو ممدّداً على الأرض شبه جامد، وإحدى ساقيه عالقة بركام من القمصان والثياب الداخلية الخاصة به وبأمه على حد سواء والتي سقطت من الدرج. لم يكن يتصور أن أمه قادرة على أن تبدي قوة مرعبة كهذه.

وأخيراً رفع عينيه إلى أمه التي كانت واقفة، لاهثة، تنظر إليه وهو على الأرض.

كان أسفل روب فوزاكو الأزرق النيلي مفتوحاً على سعته وكان يظهر القسم السفلي من جسدها، ضخماً وممدّداً على نحو فريد. وبعيداً. في قمة المنتصف الأعلى لجسمها الذي يرقّ تدريجياً، كان وجهها اللاهث، المتألّم، يسيل بالدموع وقد كبر سنوات في لحظة. وكان مصباح السقف البعيد يغطي رأسها الشعث بهالة امرأة مجنونة.

أدرك نوبورو كل ذلك بلحظة. وفي أعماق مخه الجليدي انبعثت ذكرى: تخيل نفسه وقد عاش هذه اللحظات نفسها منذ زمن بعيد جداً. ومن دون أدنى شك، كان مشهد العقاب هذا هو الذي سبق أن راوده غالباً في أحلامه.

وأخذت أمه تنتحب وألقت نظرة عليه من خلال دموعها وصرخت به بصوت كان من الصعب فهمه:

« هذا مخجل! إنه بكل بساطة مخجل. ابني، كائن مقرف إلى هذا الحد! أن يفعل شيئاً كهذا! أريد أن أموت. لقد استطعت أن تقوم بشيء مخجل كهذا ».

دهش نوبورو لدى اكتشافه أنه قد فقد كل رغبة في الاعتراض بأن يظهر أنه كان يدرس الانكليزية. ولكن الأمر سواء: إن أمه ما

كانت لتبدو مخدوعة، كانت قد لمست « الحقيقة » شيئاً كان يرعبها أكثر من العلق، كانت هذه النقطة تضعها، أمه وهو، على قدم من المساواة لم يسبق قط أن وجد حتى الآن. ربما أمكن القول إنه كان تعاطفاً، ضغط بيديه وجنتيه الملتهبتين بالصفعات، وقرر أن يراقب بعناية كيف يمكن لشخص قريب إلى هذا الحد ان يقدر برمشة عين أن ينسحب إلى مسافة لا يمكن بلوغها. كان من الواضح أنه لم يكن اكتشاف الحقيقة نفسها هو الذي قد أثار غضبها وسبّب أساها. كان نوبورو يعلم أن خجل أمه ويأسها مصدرهما ضرب منْ الحكم المسبّق.. كانت قد أمسكت سريعاً بالحقيقة، وكان تفسيرها التافه بسبب اضطرابها كله. ولم يكن يجدي شيئاً التماس عذر في دراسة الانكليزية.

« هذا شيء أكثر مما أطيق تحمّله »، قالت فوزاكو ذلك بصوت هادىء كان يخفي مزاجهاالسيء. « إن صبيّاً وقحاً كهذا يتجاوزني. انتظر قليلاً. سأطلب من والدك ان يفرض عليك عقاباً، عقاباً رادعاً يسحب منك الرغبة في الإعادة ». كان من الواضح أن أمه كانت تنتظر، بعد هذه الكلمات، أن تراه يبكي ويعتذر.

ولكن في هذه اللحظة استسلم قلبها وأخذت العزم لتواجه الأمر فيما بعد. لئن توصلت إلى الحصول على اعتذارات من نوبورو قبل ان يصل ريوجي فإنها تستطيع ان تخفي عنه كل شيء وتنقذ كبرياءها كأم. ولكن ينبغي للدموع والاعتذارات ان لا تتأخر، على أنها لا تستطيع ان توحي بتواطؤ بينها وبين نوبورو لأنها سبقت أن هدّدت ابنها بعقاب من والده. لم يكن باستطاعتها إلا أن تنتظر بصمت.

ولكن نوبورو لم يقل كلمة: كان الشيء الوحيد الذي يهمه هو ان يرى إلى أي حد ستذهب الآلة المعتمة المتحركة الآن، في الفتحة

المظلمة للخزانة . كان قد وجد نفسه عند الحدود القصوى لعالمه ، عند حوافي البحار والصحاري . وما دامت جميع الأشياء قد ولدت هنا ، وتعرّض لعقاب لأنه كان موجوداً هناك ، فقد كان من المستحيل عليه أن يرجع إلى مدن الرجال الدافئة ، ولا ان يحني وجهه على الحشائش المبتلّة بالدموع . إنه لا يستطيع ذلك بسبب القسم الذي سبق أن قطعه وهو يشاهد بوضوح من ثقب الخزانة خلال ليلة من نهاية الصيف روعة اتحاد الكائنات الذي كان قد بلغ ذروته عند صفير الصفّارة .

في هذه اللحظة ، فتح البـاب بتردّد وظهـر ريـوجـي ، وإذ رأت فوزاكو أن الفرصة قد ضاعت منها ومن ابنها ، فقد احتدّت من جديد ، وكان من الأفضل لريوجي ان لا يظهر أبداً ، أو أنه كان عليه ان يأتي معها منذ البداية .

كانت فوزاكو مغتاظة لدخول ريوجي غير المناسب وفاقدة الصبر لتعيد ترتيب عواطفها ، فاستدارت نحو نوبورو وهـي أكثـر مـا تكون هياجاً على الاطلاق .

قال ريوجي وهو يدخل بهدوء إلى الغرفة : « ماذا يجري هنا ؟ »

ـ أطلب منك أن تعاقبـه . إذا لم تضربـه ، فـإن هـذا الولـد لـن يتخلّص من عواطفه السيئة . لقد اندسّ في هذه الخزانة وترصّد فراشنا من ثقب .

سـأل ريوجي بصوت لا غضب فيـه : « هـل هـذا صحيـح يـا نوبورو ؟ »

وأشار نوبورو ، وهو قابع على الأرض ، ممدّد الساقين أن نعم من دون ان يتكلم .

ـ « وإذن .. فقد أتتك الفكرة فجأة هذا المساء وحاولت ؟ »

هزّ نوبورو رأسه بوضوح .

ـ « اوه! هل سبق أن فعلت ذلك مرّة واحدة أو مرتين، ها ! »

هزّ نوبورو رأسه من جديد .

« إذن كل الوقت ؟ »

وإذ رأى ريوجي وفوزاكو الصبي يشير أن نعم تبادلا النظر بطريقة لا إرادية .. وسرّ نوبورو وهو يرى في الضوء نظرات متبادلة تهدم الحياة على الأرض التي حلم بها ريوجي ، وحياة العائلة الصحية التي كانت فوزاكو تؤمن بها . ولكن هيجانه كان قد قاده ليبالغ في تقدير قوة خياله . ولقد كان يتوقع رد فعل ، مهووساً .

« آه ، نعم . » قال ريوجي ويداه غارقتان بإهمال في جيبي معطفه . وكانت ساقاه المشعرتان المتجاوزتان أسفل ثوبه تحت عيني نوبورو مباشرة .

والآن ، كان ريوجي مجبراً على اتخاذ قرار أب . كان هو القرار الأول الذي أجبرته حياة اليابسة على اتخاذه . ولكن ذكريات البحر الهائج كانت تلطّف الأفكار التي كان قد كونّها على الأرض وتعيق طريقته الغريزيّة تقريباً لمواجهة المشاكل .

لقد كان ضرب الصبيّ سهلاً ولكن كان عليه إذ ذاك ان يتوقّع مستقبلاً صعباً . عليه ان يتقبّل حنانهم بكبرياء ، وان يخلّصهم من مشاكلهم اليومية ، وان يدقّق في حسابات البيت ، وأن يدرك الخلافات المبهمة بين الأم والابن ، وأن يعالج بطريقة محدّدة هذه المشاكل

الحسّاسة التي عليه ان يواجهها، وان يبدو كمعلم لا يخطىء. لم يكن عمله مع عاصفة وسط البحر ولكن مع الرياح التي تهبّ بلا انقطاع على الأرض.

وبالرغم من أن ريوجي لم يدرك ذلك، فإن النفوذ البعيد للبحر كان يؤثر من جديد فيه. كان عاجزاً عن التمييز بين ما هو رفيع في العواطف وبين ما هو حقير. كان يتصور أن أشياء هامة جوهرياً لا يمكن ان تحصل إطلاقاً على الأرض، وعبثاً حاول ان يفتش عن قرار يتجاوب مع الموقف الآني، فإن المشاكل التي تتعلق بالحياة على الأرض كانت تكتسي دائماً مسحة ضبابية.

أولاً هو لا يستطيع ان يستجيب لطلب فوزاكو بضرب ابنها. كان يدرك أن فوزاكو سوف تكون عاجلاً أو آجلاً بغاية الامتنان لتسامحه. بالإضافة إلى أنه، وسط هذه الأفكار المشوّشة، اعتقد أنه يكتشف في نفسه عواطف أبويّة. وفي الوقت الذي كان يسارع فيه لينفي من ذهنه قلقه المشروع المتعلق بهذا الولد الصعب القياد المبكّر النضج، موضوع الهموم، والذي لم يكن يحبه حقاً، كان ريوجي يجاهد ليقنع نفسه بأنه يطفح بحنان أبويّ. بالإضافة إلى ذلك، بدا له أنه يكتشف هذا الانفعال لأول مرة بالخوف من انحراف يمكن أن يلحق بعواطفه.

« ماما، اجلسي أنت أيضاً. لقد فكرت ووجدت، في هذه القصة، أن نوبورو لم يكن وحده المذنب. عندما أتيت إلى هذا البيت، تغيرت حياتك يا نوبورو. لم تكن غلطتي، ولكن من المؤكد أن حياتك قد تغيّرت. ومن الطبيعي بالنسبة لصبي في الكليّة أن يجد التغيّر في حياته شيئاً مثيراً. إن ما فعلته هو شيء سيء، بالتأكيد سيء، إنني أطلب منك أن تطبّق فضولك على العمل. مفهوم؟ لن تقول شيئاً عما

شاهدته . ولن تطرح أسئلة . لم تعد طفلاً ، وذات يوم يمكننا أن نضحك معاً ونتحدّث بين ثلاثة بالغين عن ما جرى . ماما ، عليك أن تهدئي أنت أيضاً . . سننسى الماضي ونواجه المستقبل بطريقة سعيدة ، اليد في اليد ، سأسدّ هذا الثقب غداً وسننسى شيئاً فشيئاً هذه الأمسية البغيضة : أليس كذلك ؟ مفهوم ، نوبورو » .

كان نوبورو يستمع ، معتقداً أنه يوشك أن يختنق .

ـ « رجل كهذا ، هل يمكنه أن يقول هذا الكلام ؟ رجل كان ، في ما سبق ، مدهشاً ومتألّقاً إلى حد كبير ! »

كانت كل كلمة تسبب لنوبورو قلقاً لا يُصدّق . كان يرغب في أن يصرخ ، مقلّداً أمه : « آه ! هذا مخجل ! » كان ذلك الرجل يتلفّظ بكلمات كان عليه أن يمتنع عنها ، كلمات خسيسة ، قيلت بصوت متملّق ، وما كان ينبغي لها قط ان تخرج من فمه قبل يوم نهاية العالم ، كلمات كالتي يدمدم بها الرجال في مخابئهم النتنة . « إنه راضٍ » ، فكر نوبورو وقد تملّكه الغثيان . وغداً ، سوف تنفّذ يدا ريوجي الدنيئتان ، يدا أب ، أعمال نجارة هذا الأحد ، وستسدان إلى الأبد هذه الفتحة الضيّقة على وميض لا يتعلّق بهذه الأرض والتي استشفّها من قبل .

ختم ريوجي قوله : « مفهوم ، نوبورو » وهو يربت بيده على كتف نوبورو . حاول هذا الأخير أن يحرّر كتفه ولكنه لم ينجح في ذلك . وكان يفكّر بأن القائد كان على حق عندما قال إن هناك أشياء في هذا العالم أفظع من أن يُضرب المرء .

الفصل السادس

طلب نوبورو من القائد دعوة لاجتماع عاجل، فوافق الصبية الستة لدى خروجهم من الكليّة ليتجمّعوا عند بركة السباحة المجاورة لمقبرة الغرباء. كان الوصول إلى بركة السباحة يرتكز على نزول المنحدر المسنّم لرابية مغطاة بأجمة بلوط عملاقة. وفي منتصف الطريق توقفوا ونظروا من خلال الأشجار الدائمة الخضرة إلى المقبرة عند السفح حيث كان بلّور الصخر يتلألأ تحت شمس الشتاء؛ ومن هذه النقطة من الرابية كانت عدة مداميك لشواهد القبور وصلبان حجرية تتدرّج متجهة إلى الطرف الآخر. وكانت نباتات السيكاس تحدّد بخضرتها المائلة إلى السواد المسافات بين القبور.

وكانت أزهار قمة الجبل المقطوعة ترمي في غير موسمها بقعاً فاقعة من الأحمر والأخضر. وكانت مقبرة الغرباء تقع عند يمين الرابية، بالمواجهة كان «برج البحرية» يشرف على سطوح لا عدد لها، وعلى اليسار، كانت بركة السباحة في أعماق وادٍ. وفي غير الموسم، كانت الشلّة تجد على أطراف البركة، مكاناً مثالياً للقاءات متعددة.

قفز الصبية الستة فوق جذور الأشجار الضخمة التي كانت تبرز كأوردة ضخمة سوداء على سطح الأرض وانتشروا وهم يركضون على الدرب الذي يفضي إلى الحشيش المجفّف المحيط بالبركة. كانت البركة، المحاطة بأشجار دائمة الخضرة قد أفرغت، وكان الطلاء الأزرق في القاع قد تقشّر، وكان المكان جافاً وهادئاً.

وبدلاً من الماء، كانت الأوراق الجافة هي التي تتكوّم في الزوايا. وكان السلم الحديدي المدهون بالأزرق يتـوقـف فـوق القـاع تماماً. وكانت الشمس الهابطة عند الغرب تختبىء خلف الصخور المحيطة بالوادي كأوراق حاجز واقٍ. وكان الغبار قد تكدّس في قاع البركة.

كان نوبورو يتبع الآخريـن في المؤخـرة. وكـان يشـاهـد وهـو يركض، قبور الغرباء الكثيرة ويحتفظ عنها بصورة في ذهنه، القبور والصلبان التي كانت تتجّه إلى الناحية الأخرى.. ما اسم هذا المكان القائم في الخلف، هذا المكان الذي كانوا يتواجدون فيه؟

جلسوا جميعاً على المقاعد الاسمنتية للمشاهدين مكوّنين معيّناً يحتلّ القائد وسطـه. أخرج نوبورو من حقيبته الجلدية دفتراً صغيراً رقيقاً مدّه للقائد من دون ان يتفوّه بكلمة. على الجلدة كانت قد كتبـت بـالحبر الأحمر هـذه الكلمات المقـذعـة: «اتهامـات ضـد تسوكازاكي ريوجي». مدّ الصبية جميعهم رقابهم، وقرأوا معاً النص. كان عبارة عن مقتطفات من يوميّات نوبورو. وكان حادث الخزانة، والليلة الماضية ترفع الرقم حتى الثامن عشر من عدد المقاطع.

قال القائد بلهجة بائسة: «هذا مريع!» فالمقطع الثامن عشر لوحده يساوي خمساً وثلاثين نقطة. والمجموع.. لنَرَ... حتى لو لم نعط إلا خمس نقاط للمقطع الأول، فإن الأمر يزداد سوءاً ما اقتربنا من النهاية. إني أخشى ان يتجاوز المجموع المئة والخمسين. لم أكن أتصوّر أن الأمر بمثل هذا السوء... ينبغي ان نفكر بهذا».

بدأ نوبورو، وهو يستمع للقائد، يرتجف. سأل أخيراً:

- «ربما كانت هناك وسيلة لإنقاذه؟».

ـ « ولا واحدة. إنني آسف ولكن.. »

عند هذه الكلمات، ظلّ الصبية صامتين. وفسّر القائد هذا الصمت كنقص في الشجاعة وأخذ يتكلم من جديد وهو يطوي بين أصابعه عرق ورقة يابسة كان قد سحقها: « جميعنا عباقرة! وكما تعلمون، فإن العالم فارغ. أعلم أنني سبق أن قلت ذلك مرات عديدة ولكن هل فكّرتم بجديّة في هذا الكلام؟ ذلك أن التفكير بأنه من المسموح لكم أن تفعلوا كل شيء هو تفكير بطريقة سطحية. وفي الواقع، إننا وحدنا القادرون على إعطاء هذا الترخيص. إننا نسمح بوجود المعلمين، والأساتذة والمدارس والآباء والمجتمع، وبكل هذا الركام من الأوساخ.؛ ليس لأننا نفتقر إلى القوة، ولكن لأن السماح هو امتياز لنا، وإذا كنا نحسّ بأقل قدر من الشفقة. فلن نكون جديرين بأن نقبل سماحنا لكل ذلك بقلب قاسٍ، وينتج عن ذلك أننا نسمح دائماً بأشياء ينبغي لنا ألا نوافق عليها، وفي الواقع ليس هناك إلا عدد محدود من الأشياء التي ينبغي لنا أن نسمح بها، مثلاً، البحر.. ».

أضاف نوبورو: والمراكب »؟

ـ بالضبط. وبالإجمال أشياء قليلة جداً. وإن هي تآمرت لكي تخوننا، فسيكون ذلك كما لو أن كلبنا يعضّ يدنا، وستكون إهانة لامتيازنا الخاص.

قال رقم ١: ـ حتى الآن، لم يسبق لنا قط أن فعلنا شيئاً في هذا الصدد.

ـ « هذا لا يعني أننا لن نواجه ذلك أبداً »، ردّ القائد بطريقة لبقة وبصوت مشجّع « ولكي نعود إلى تسوكازاكي ريوجي، فإن وجوده لا

يشكل بالنسبة لفريقنا أية أهمية، ولكنه ذو قيمة كبيرة جداً بالنسبة لرقم ٣. لقد أنجز ريوجي هذا الاكتشاف ليظهر لرقم ٣ شهادة ساطعة للنظام الداخلي للعالم الذي سبق أن تحدثت عنه غالباً. لقد غدا الشيء الأكثر بشاعة على الارض: أباً. يجب أن نعمل شيئاً ما. كان من الأفضل بالنسبة له لو بقي البحّار اللامجدي الذي كانه.

« وكما قلت من قبل، إن الحياة تكمن في رموز وقرارات بسيطة.. من الممكن أن لا يكون ريوجي قد عرف ذلك، ولكنه واحد من هذه الرموز. على الأقل، واستناداً إلى شهادة رقم ٣، يبدو أنه كان أحد هذه الرموز، إنني متأكد أنكم تعرفون جميعاً أين هو واجبنا. عندما يغصُّ الدولاب فيجب أن نجبره ليعود إلى مكانه. وإلا فإن النظام لن يستتبَّ أبداً؛ وكما نعلم جميعاً، فإن العالم فارغ والشيء الوحيد الذي يهم هو ان نحافظ على هذا النظام. إننا حرّاسه، والأفضل من ذلك، أننا نملك القدرة للحفاظ على هذا النظام، (ردّد هذا بلا تشدّق). ليس هناك من شيء آخر يُعمل. سنقاصص؛ وفي الواقع لصالحه. رقم ٣ تذكر هذا اليوم على رصيف يماشيتا، عندما قلت إنه لم يكن هناك سوى وسيلة واحدة لنصنع منه بطلاً من جديد، وإنني لن أتأخر حتى أعرّفك عليها.

ردّ نوبورو الذي كان يجاهد لكي لا يرتجف على ساقيه:

- إنني أتذكر.

- « هذا الوقت قد حان ».

تبادل الصبية النظرات، ثم جلسوا، وهم لا يبدون أية حركة ولا

ينبسون بأي كلمة. كانوا يفهمون خطورة ما سيقوله القائد. نظروا إلى بركة السباحة الفارغة، المغطاة بالغبار؛ وكانت خطوط بيضاء مرسومة على القاع الأزرق المقشّر. وكانت الأوراق الميتة تتكوّم في الزوايا. الجافة تماماً. وفي هذه اللحظة كانت بركة السباحة تبدو عميقة بشكل مريع، عميقة خصوصاً وأن عتمة مزرقة كانت تجتاح القاع؛ والشعور بأن جسداً مرمياً في هذه البركة الفارغة من دون أن يجد ما يمكن أن يدعمه أثار حول البركة توتراً مستمراً، فماء الصيف العذب قد ولّى، هذا الماء الذي كان يتلقّى جسد السابح ويحمله باسترخاء، ولكن كنصب شامخ في الصيف وفي الماء، كانت البركة باقية وكانت خطرة تماماً.

وكان السلم الأزرق الذي يتجاوز حفة البركة يغوص نحو القعر ولكنه يتوقّف فجأة أعلى منها بكثير، وفي الحقيقة، لم يكن هناك على الإطلاق أي شيء يمكن أن يوقف جسماً.

« غداً تنتهي الدروس في الثانية. يمكننا ان نقوده إلى هنا ثم نصحبه إلى حوض « سوجيتا » الجاف. رقم ٣ سيكون عليك أنت أن تجرّه إلى هنا.

« سأعرّف الآخرين بتعليماتي. سأتكفّل بالمنوّم وبالمبضع. لا يمكننا أن نجهز على رجل قويّ مثله من دون أن نبدأ بتنويمه. فالكبار مفترض بهم أن يأخذوا بين حبة أو ثلاث من هذا الدواء الألماني الموجود لدينا في البيت، فإذا ما أعطيناه منه سبع حبات فأعتقد أن الأمر يتم بلمحة بصر، سوف أسحق الحبوب لكي تذوب سريعاً في الشاي.

رقم ١: ستجلب حبلاً من القنّب سماكة ٥ ملليمترات كالذي

يستعمل في الجبل. أما الطول فلنَــرَ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة أطراف طول الواحد متر وثمانون، هذا يكفي.

رقم ٢ : ســوف تحضر الشــاي في زجــاجــة تــرمس ستخبئهــا في حقيبتك.

وبما أن رقم ٣ مكلّف بجذبه إلى هنا، فلن أطلب منه شيئاً آخر، رقم ٤ ستحضر سكراً، وملاعق، وفناجين من الورق لأجلنا ولأجله، فنجان من البلاستيك غامق اللون.

رقم ٥ : سيكون لديه عصابة للعينين وفوطة لنجعل منها كمّامة.

وكل واحد يستطيع أن يحضر ما يشاء.. جميع الآلات القاطعة مثل السكاكين، والمناشير.

لقد سبق لنا أن تمرّسنا على الأشياء الأساسية مع القط. سيكون الشيء نفسه، لا داعي للقلق. سوف يكون أضخم بقليل.. هذا كل شيء. ثم إنه ستنبعث منه رائحة أكثر كراهية من القط بقليل».

كان الصبية جالسين صامتين كأسماك الشبوط يتطلعــون إلى البركة الفارغة.

ـ رقم ١ هل أنت خائف؟

هزّ رقم ١ بمشقّة رأسه.

ـ وأنت رقم ٢؟

وكما لو قد أصابه البرد فجأة، غرز رقم ٢ يديه في جيبي معطفه.

ـ «رقم ٣ ماذا يحدث لك؟»

كان نوبور يتنفّس بمشقّة وكان فمه جافاً كما لو أنه كان مليئاً بالتبن، فلم يستطع أن يجيب.

«آه، كنت أعتقد أنهم كانوا مجلّدين. إنهم يتحدّثون كثيراً، ولكن حين يحين موعد العمل، لا يكون عندهم من الطاقة إلا ما يكمن في كشتبان خياطة. أريد أن أبعث الحماسة في نفوسكم، وقد أحضرت ما يتوجب لذلك».

وأخرج من حقيبته كتاب قانون محمّر الجلدة. قلب فيه الصفحات بيد ماهرة ليجد فيه ما كان يقصد إليه.

ـ «هاكم. إنني أقرأ، اسمعوني جيداً.

قانون الجزاء، مادة١٤: «إن أعمال الشبان الذين لم يبلغوا بعد الرابعة عشرة من عمرهم ليسوا معاقبين من قبل القانون. سأعيد القراءة مرة أخرى بصوت عالٍ: » وقرأ. وأدار كتاب القانون بين أيدي الصبيان الخمسة ثم أضاف:

«هذا هو التشريع الذي صوّت عليه لمصلحتنا آباؤنا والمجتمع الذي تخيّلوه والذي آمنوا به.. وأعتقد أن علينا أن نعترف بجميلهم من أجل ذلك، هذا التشريع هي طريقتهم للتعبير عن آمالهم الكبيرة التي يبنونها علينا ويمثّل في الوقت نفسه الأحلام التي لم يكونوا قادرين قط على تحقيقها، لقد ظهروا أدعياء لأنهم بعد أن كبّلوا أنفسهم بالحبال، منعونا عن فعل أي شيء. وكانوا متهوّرين بما فيه الكفاية ليسمحوا لنا أن نكون هنا وهنا فقط، لنرى زاوية من السماء الزرقاء ونستمتع بحرية مطلقة.

«هذا التشريع الذي سنّوه هو قصة أولاد خطرة جداً. وهي

كذلك لأنه، بعد كل شيء، كنا حتى الآن أولاداً لطيفين، ناعمين، نجهل الشر. ولكن ثلاثة منا سيبلغون الرابعة عشرة في الشهر القادم، أنا ورقم ١ ورقم ٣، والثلاثة الآخرون سيكون عمرهم أربعة عشر عاماً في آذار القادم، فكروا بهذا لحظة. إنها فرصتنا الأخيرة».

كان القائد يراقب وجوه الصبية جميعاً، وقد رأى خدودهم المتوتّرة قليلاً تهدأ، والخوف يتبدد. لقد فتحوا أعينهم للمرة الأولى على اللطف الذي كان هذا المجتمع الخارج عنهم يعاملهم به، فكان لديهم الشعور بأن أعداءهم كانوا يحمونهم في الواقع.

رفع نوبورو عينيه نحو السماء.

كانت زرقة السماء تضعف وتحول إلى رمادي الغروب. ماذا لو حاول ريوجي في نزاع موته البطولي أن ينظر إلى السماء المقدّسة؟ كان يحس بأسف لفكرة أن يعصب له عينيه «إنها فرصتنا الأخيرة. ردد القائد. إذا لم نعمل الآن فلن نستطيع أبداً أن نطيع الأمر الاسمى للحرية الإنسانية لإنجاز العمل الأساسي في ملء فراغ العالم إلا إذا كنا جاهزين للتضحية بحياتنا. وتستطيعون أن تروا أنه من العبث أن يضحي بحياتهم منفذو المآثر الكبرى الذين هم نحن. إذا لم نعمل الآن فسيكون من المستحيل أن نسرق من جديد، أن نقتل إنساناً أو أن نعمل أي شيء آخر يشهد على الحرية الإنسانية. إننا نمضي حياتنا في التملق، والثرثرة، والاغتياب، والرضوخ والتسويات والخوف، كل يوم نتعرّض لذعر جديد، نترصّد خيراتنا ونعيش كالفئران، ذات يوم سوف نتزوج، وسيكون لنا أولاد، وفي نهاية المطاف سنكون آباء، أبشع ما على الأرض!

« نحن بحاجة الى دم! دم بشري! وإلا فسوف يبهت هذا العالم الفارغ وينتهي إلى أن يتقلّص. علينا أن نأخذ دم هذا البحّار الطازج وننقله إلى العالم الذي يشرف على الموت، إلى السماء التي تشرف على الموت، إلى الغابات التي تشرف على الموت، وإلى الأرض التي تشرف على الموت.

« الآن، الآن! الآن! بعد شهر سوف تنظّف الجرافات الأرض حول حوضنا الجاف. وسيكون المكان مزدحماً بالناس.. بالإضافة إلى أننا سنبلغ الرابعة عشرة »..

ونظر القائد من خلال أغصان الأشجار الدائمة الخضرة إلى السماء الرمادية كالماء وقال:

« أعتقد أن الطقس سيكون جميلاً في الغد ».

الفصل السابع

في ٢٢ كانون الثاني، قام ريوجي وفوزاكو، صباحاً، بزيارة مختار يوكوهاما وطلبا منه ان يكون شاهدهما. فوافق المختار بترحاب.

عندما غادرا المختارية دخلا إلى متجر كبير وأوصيا على بطاقات زواج مطبوعة.. كانا قد حجزا من قبل قاعات لحفلة الاستقبال في «الفندق الكبير الجديد». وبعد أن تناولا الفطور في المدينة في الصباح الباكر رجعا إلى متجر «ركس».

وفي بداية بعد الظهر، ترك ريوجي المخزن لموعد سبق أن تحدث عنه في الصباح. كان واحد من رفاقه القدامى في المدرسة الحربية للأسطول التجاري، وهو ملازم أول على مركب يعود الآن إلى مرفأ تاكاشيما، لم يكن حرّاً إلا في هذه الساعة.. ولم يكن ريوجي يريد أن يلقاه في لباس من القماش الانكليزي المفصّل خصّيصاً له. كان يكره أن يتباهى بوضعه الجديد أمام رفيق قديم، على الأقل قبل الزواج. قال لفوزاكو إن عليه ان يتوقف في البيت بطريقه إلى حوض السفن وارتداء لباس البحّار.

ونكّدت عليه فوزاكو وهي ترافقه إلى الباب: «هل أنت متأكد من أنني لن يكون علي أن أقلق وأنا أراك تذهب على هذا المركب إلى مصير مجهول؟»

كان نوبورو قد ادّعى أنه كان بحاجةٍ إلى مساعدة ريوجي ليقوم

بفروضه فطلب منه مساء اليوم الفائت ليأتي إلى غرفته، وطلب منه ان يستمع جيداً إلى المهمة التي كلّف بها والتي كان يؤدّيها بأمانة.

« هاك، بابا » غداً، سيكون رفاقي متشوقين لسماع بعض قصصك عن رحلاتك في البحر، غداً، بعد الساعة الرابعة عشرة، وبعد انتهاء الصفوف، سينتظرون على الرابية فوق بركة السباحة، جميعهم راغبون في لقياك والاستماع إليك. وقد وعدتهم بأنك ستأتي. ستأتي، أليس كذلك؟ وستقصّ عليهم بعضاً من مغامراتك. ستأتي مرتدياً لباس البحّار، مع القبعة، أليس كذلك؟ ولكن احتفظ بهذا الأمر سراً خاصة تجاه أمي.. قل لها إنك ذاهب للقاء رفيق قديم للمركب أو شيء من هذا القبيل وأنت ستترك المتجر باكراً ».

كان هذا هو أول حظوة يطلبها نوبورو من ريوجي كولد مدلّل. فحرص ريوجي على أن لا يخون ثقة الصبي، كان ذلك هو واجب الأب، فلو اكتشفوا فيما بعد الحقيقة، فسوف يضحكون لها جميعهم معاً. وبعد أن أعطى فوزاكو سبباً معقولاً، ترك المتجر باكراً. وبعد الساعة الرابعة عشرة بقليل كان ريوجي ينتظر، جالساً على جذر سنديان الرابية المجاورة لبركة السباحة عندما ظهر الصبيان. أحدهم، وكان ذا حاجبين مقوسين كهلال في يومه الثالث، وشفتين حمراوين، كان يبدو محنّكاً بصورة خاصة شكره بتهذيب لمجيئه وأوحى بأن هذا المكان لم يكن ملائماً للحديث وأنه باستطاعتهم أن يذهبوا إلى ما يسمونه حوضهم الجاف. ورأى ريوجي أن المكان غير بعيد عن المرفأ فوافق، وكان الصبية الستة يتخاصمون فيما بينهم ليعتمر كل بدوره قبعة البحّار. كانوا فرحين، كان أصيلاً لطيفاً في منتصف الشتاء.. كان الطقس بارداً في الظل. ولكن أشعة الشمس التي كانت تضربهم

من خلال طبقة رقيقة من الغيوم، كانت تعفيهم من الاحتفاظ بمعاطفهم. وكان ريوجي يلبس كنزته الرمادية ذات القبة العالية، ويحمل سترته على ذراعه. كان يعتمر قبّعة البحّار ويمشي، محاطاً بالصبية الستة بمن فيهم نوبورو، يحمل كل واحد بيده حقيبة من الجلد، تارة أمامه، وطوراً خلفه وهم في غاية المرح. بالنسبة لهذا الجيل، كان الصبية أولاداً صغاراً. وكان المشهد يذكر ريوجي بستة قاطري سفن يبذلون جهدهم ليجرّوا مركباً نحو البحر.

ولم يكن يعير انتباهاً إلى ضرب من القلق كان يخيم على اهتياجهم الفرح. وأبلغ الولد ذو الحاجبين الشبيهين بهلال ريوجي بأنهم سوف يستقلون الترام. اندهش ريوجي ولكنه لم يبد اعتراضاً. كان يتفهم أن الديكور كان هاماً بالنسبة لصبية في هذا العمر يريدون ان يستمعوا إلى حكايات. ولم يقم أي منهم بحركة للنزول قبل نهاية الخط في «سوجيتا» البعيدة عن المدينة.

سأل ريوجي عدة مرات مازحاً: «قولوا لي، إلى اين نحن ذاهبون؟»

كان قد قرر أن يمضي اليوم مع الصبية وكان يهمه ألا يظهر وجهاً منزعجاً مهما حصل.

ومن دون ان يظهر عليه، كان ريوجي لا ينفك يتأمل نوبورو بينما كان هذا الأخير يشارك في فرحة أصحابه. وسجّل لأول مرة نظرة ثاقبة، لا تزال فاحصة. وفيما كان ينظر إليهم على هذا النحو، أصبحت أطياف نوبورو والآخرين مختلطة، وكانت شعاعات شمس الشتاء المتسلّلة من نوافذ الترام تلوّن ذرات الغبار وتتراقص فتحول بين تمييز

نوبورو عن الآخرين. كان ذلك يبدو بالكاد ممكناً بالنسبة لصبيٍّ متوحّد، مختلف إلى هذا الحد عن الآخرين والذي كانت لديه العادة الغريبة في النظر خلسة إلى الآخرين. وفكّر ريوجي أنه كان محقاً في التضحية لنصف يوم لكي يسلّي نوبورو وأصدقاءه. كان يفكر بهذه الطريقة كأب يضع نفسه من وجهة نظر أخلاقية كما من وجهة نظر تربوية. ولا شك في أن معظم المجلات والكتب كانت ستُقرُّه على ذلك. كان نوبورو قد مدّ له يد المساعدة ليتيح له الفرصة ليوطّد في هذه الرحلة علاقتهما. وكانت هذه هي الوسيلة بالنسبة لأب ولابن غريبين أحدهما عن الآخر أصلاً ليصطنعا رباط ثقة عميقة وحنونة أمتن من أي رباط دم يمكن أن يوجد أبداً. ولما كان من الممكن لريوجي أن يكون أباً وهو في العشرين من عمره فإن فارق السن بينهما لم يكن إلا طبيعياً. وما أن نزلوا عند نهاية خط ترام « سوجيتا »، حتى بدأ الصبية يقودون ريوجي بسرعة ناحية الجبل. وسأل ريوجي بلهجة:

ـ « قولوا إذاً، هل هناك حوض جاف في الجبل؟ »

ـ ولكن في طوكيو، تمر السكّة الحديدية التحت ـ أرضية فوق رأسك!

ـ أرى ذلك، لقد أفحمتموني، يا أقويائي.

وإذ أظهر ريوجي أنه لم يكن مغفلاً، فإن الصبية الفخورين بأنفسهم لم يكفوا عن الضحك.

كانت الطريق تحاذي قمة رابية « آوتو » وتدخل مقاطعة « كرافاوا ». مروا أمام مصنع كهربائي كان يعكس في سماء الشتاء ربطة خيوط كهربائية وعوازل دقيقة ثم دخلوا في نفق « توميوكا ».

وحين وصلوا إلى الطرف الآخر رأوا جهة اليمين السكة الحديدية لقطار « طوكيو - يوكوهاما » السريع تلتمع. وعلى اليسار كان المنحدر مغطى بأراض مفرزة حديثة جداً.

« لقد وصلنا تقريباً. سوف نصعد بين هذه الأراضي المفرزة. لقد كانت مركز إقامة الجيش الأميركي ».

وترآسَ الولد الذي كان يبدو القائد المجموعة، وفي بضع لحظات أصبحت حركاته ولهجته فظّة.

وكانت أعمال الأراضي المفرزة قد أنجزت. حتى أنه كانت هناك حيطان فاصلة من الحجارة وهياكل بناء بيوت عدة. كان الصبية الستة يحاوطون ريوجي ويتقدّمون أمامهم على الطريق بين الأراضي المفرزة. وبالقرب من قمة الرابية كانت الطريق تختفي فجأة ويجد المرء نفسه أمام هضبة من الأرض البور. كانت كبرج شعوذة. وحين يُنظر إليها من تحت، لا يمكن أبداً الاعتقاد بأن هذه الطريق المستقيمة والمخطّطة جيداً كانت تضيع عند هذا المكان بين الأعشاب العالية.

فوجئوا بأنهم لم يروا أحداً هنا. ومن الجهة الأخرى للرابية، كان هدير الجرافات يُسمع. وكان صوت سير السيارات يصعد من الطريق النفق البعيد في الأسفل. وباستثناء أصداء أصوات الآلات كان المشهد بالكامل صحراء، وما كان لهذه الأصوات نفسها إلاّ أن تفاقم كآبته. هنا وهناك كانت جذوع أشجار متروكة في أماكنها تبرز من المرج. وقد بدأت تفسد. وكان ممر ضيّق مدفون تحت أوراق ميتة يحاذي طرف الرابية. واجتازوا الأرض البور. على يمينهم كان خزان ماء صدىء محاطاً بشبكة من الأسلاك الشائكة مغطّى إلى النصف

بالأعشاب العالية. وبالقرب من الخزان سُمِّرت لافتة مصنوعة من صفيحة فولاذية صدئة كانت تحمل إشارة بالانكليزية.. توقف ريوجي وقرأ:

مقام الجيش الأميركي
يمنع الدخول دون إذن
تحت طائلة الملاحقات طبقاً
للقانون الياباني

قال القائد: ماذا تعني «الملاحقات؟» كانت في حركاته شيء لم يكن ريوجي يحبه. كان الوميض الذي يضيء نظره وهو يطرح السؤال يوحي بالافتراض بأنه كان يعرف تماماً الجواب. حاول ريوجي ان يعطي بأدب شرحاً.

هذا يعني «العقاب»

ـ آه! ما دام هو لم يعد بعد ملكاً للجيش الأميركي، فإننا نستطيع أن نفعل فيه ما نشاء، إذن؟

وفيما كان يتكلم، كان الصبي يبدو عليه أنه قد نسي السؤال، كما لو كان الأمر متعلّقاً بنفّاخة أرخاها ولد في السماء.

«ها نحن في القمة»

توقّف ريوجي ونظر إلى المشهد الشامل تحت ناظريه.

«آه! لقد اكتشفْتَ مكاناً خارقاً!»

كانوا يواجهون البحر عند الشمال ـ الشرقي، وفي الأسفل، عند اليسار، كانت الجرافات تدخل المنحدر ذا التراب الأحمر الذي

كانت الشاحنات ـ الناقلة ترفعه. ومن البعيد كانت هذه الشاحنات تبدو صغيرة ،ولكن هدير محرّكها الذي لا يتوقف يصفع الهواء. وفي التّهادي بالنزول، في الوادي، كانت تُشاهد سقوف مختبر صناعي رمادية، لمعمل طيران. وفي الفناء الاسمنتي للبناء الرئيسي كانت هناك صنوبرة صغيرة، على السيارات أن تدور حولها، غارقة بالشمس.

كانت المعامل محاطة بمجموعات من بيوت السكن. وكانت شمس خفيفة تظهر فوارق الطول للعديد من السقوف وتخفق الظلال التي تعسكها أسلاك العديد من أعمدة المصانع. وكانت بعض الأشياء اللامعة التي تبدو كالأصداف عبر الدخان الناعم الذي كان يغطي الوادي بمثابة واقيات الريح في السيارات.

وعند الاقتراب من البحر كان المشهد يبدو وقد انطوى على نفسه وكان يعمّق الإحساس المشوّش بالوحدة، وبالصدىء، وبما يثير الشفقة. وفي ما وراء ركام من قطع ورشة محمّرة بالصدأ ومرمية بإهمال، كان مِرفاع زنجفرٍ يرفع ببطء رأسه. وعلى الجانب الآخر للمرفاع كان البحر، بكاسرات ـ الأمواج المصنوعة من الأحجار البيضاء المكدّسة. وعلى طرف الأراضي المستعادة على البحر، كان جرّاف أخضر يرسل دخاناً أسود.

خلق البحر لدى ريوجي الفكرة بأنه كان غائباً عنه منذ زمن طويل. كانت غرفة نوم فوزاكو تشرف على المرفأ، ولكنه لم يكن يقترب من النافذة. وفي العرض، كان البحر يبسط مساحة بنفسجية ـ باذنجانية، لأن الربيع كان ما يزال بعيداً، إلا في المكان الذي كان ظل غيمة بلون اللؤلؤ يحيله إلى أبيض باهت، بارد. وفي الساعة الثالثة بعد

الظهر، كانت السماء بلا غيوم، بزرقة شاحبة، رتيبة، أكثر شحوباً بجوار الأفق.

وبدءاً من الشاطىء الوسخ وامتداداً إلى العرض، كان البحر يمتدّ كشبكة واسعة مغبّرة. لم يكن هناك أي مركب بالقرب من الشاطىء. كانت بضع سفن شاحنة تتنقل في عرض البحر، ومراكب صغيرة، كانت، حتى من هذه المسافة، تبدو من طراز باطل.

قال ريوجي: « إن السفينة التي كنت عليها لم تكن جرّارة صغيرة كهذه ».

أجاب نوبورو:

« لقد كان لراكويو زنة عشرة آلاف طن ». ولم يكن قد نطق بكلمة طوال العصر.

« هيا، لنمشِ! » استعجل القائد وهو يجر ريوجي من كمه.

نزلوا قليلاً ممرّاً مغطى بالأوراق الميتة. ووصلوا إلى قطعة أرض أفلتت بأعجوبة من الدمار المحيط بها، إثر قمة الرابية، كما لا بد أنها كانت فيما مضى. وكانت فرجة الغابة محميّة من الغرب بقمة الرابية المغطّاة بغابة كثيفة. ومن الشرق بدغل كان يحميها من الريح. وكانت تنتهي إلى حقل مهمل من نبات الجودر الشتوي. وكانت عارشات ذابلة تتموّج خلال الدغل المحاذي للممر. وعلى طرف إحداهن كان قرع بلون الزنجفر الذابل متدلّياً. وكان ضوء الشمس في الغرب مُعاكساً بالغيوم في اللحظة التي كانت تهبط فيها على الممر. وكانت بضع شعاعات باهتة تتعلق بطرف الأغصان الميّتة.

كان ريوجي يتذكر صباه ولكنه فوجيء بالمهارة الفذّة التي كان هؤلاء الصبية الصغار قد برهنوا عنها باكتشافهم هذا النوع من المكان الخفي وتملّكهم له.

ـ « من منكم اكتشف هذا المكان؟ »

ـ أنا. ولكنني أعيش في « سوجيتا ». إنني أمرّ دائماً من هنا لأذهب إلى الكلية. لقد وجدته وأشرت إليه لأصحابي.

ـ وأين يوجد حوضكم الجاف؟

ـ هنا.

كان القائد يقف أمام حاجز مشبّك صغير، عند أسفل جنب الرابية، وابتسم وهو يشير إلى المدخل.

وبدت هذه الابتسامة لريوجي هشة هشاشة الزجاج وخطرة جداً. لم يكن يستطيع ان يقول من أين كان يأتيه هذا الانطباع. أخفى الصبيّ نظره على ريوجي بخفّة سمكة غجوم تنفتل خلال شبكة. وتابع شرحه.

« هاك حوضنا الجاف. حوض جاف في أعلى الجبل. هنا نصلح المراكب. نفكّها قطعة قطعة ثم نعيد بناءها بالتمام.

ـ هذا غير ممكن؟ فلن يكون أمراً سهلاً جرّ مركب إلى هنا!

قال الصبي: « هذا سهل. وليست هناك مشكلة »

وأضاء وجهه من جديد ببسمة مفرطة الجمال.

جلس سبعتهم على الأرض التي كان يغطيها في بعض الأمكنة عشب أخضر، عند مدخل المغارة. كان البرد شديداً في الظل وكان الهواء الذي يهبّ من البحر يلفح وجوههم. وضع ريوجي كنزته على

ظهره وشبك ساقيه. وما كاد يستقر حتى عاودت الجرافات والشاحنات ضجيجها.

سأل ريوجي وهو يجهد نفسه ليتّخذ لهجة مرحة: من من بينكم جميعاً ركب سفينة ضخمة؟

كان الصبية يتبادلون النظر صامتين واستأنف. وهو ينظر إلى مستمعيه الصامتين: « لو تحدّثنا عن الحياة في البحر، فيجب أن نبدأ حديثنا بدوار البحر. كل بحّار عرف هذا الدوار مرة أو أكثر. ولقد عرفت بحّارة كانوا يهملون الأمر يأساً من النجاح بعد سفرتهم الأولى لكثرة ما كانوا قد عانوا. كلما كانت السفينة كبيرة كلما ازداد الترنّح والاهتزاز، ثم هناك الروائح الخاصة بالسفن: الدهان والزيت والمطبخ.. »

ولما رأى أن دوار البحر لم يكن يثيرهم، جرّب أغنية، لعدم وجود موضوع آخر:

« هل سبق أن سمعتم هذه الأغنية؟
رنّت الصفّارة، وقُطع الشريط.
غادرت السفينة الشاطىء
أنا أيضاً قرّرت أن أصبح بحّاراً
وللمرفأ الذي يبتعد.

أقول باليد « وداعاً لطيفاً ».

تدافع الصبية بأكواعهم وانفجروا بالضحك. ولم يقو نوبورو على التماسك من الخجل، فقام، ورفع القبعة عن رأس ريوجي. أدار ظهره وتلهّى بالقبعة كما لو كانت لعبة. كانت المرساة وسط الشعار الكبير

بشكل دمعة محاطة بتطريز من خيوط ذهبية رفيعة من أوراق غار مطرّزة بالذهب وقد تدلّت منها عنبات فضيّة.. ومن فوق الشعار وتحته، كانت حبال ثخينة من خيوط الذهب ملفوفة بلفّات رخوة. وكان مقدّم القبعة الأسود وهو يعكس سماء العصر يلمع بوميض حزين.

كانت هذه القبعة المدهشة، قد ابتعدت من قبل على بحر رائع تحت سماء صيفية غاربة. كانت رمز الوداع والمجهول. هذه القبعة التي ذهبت بعيداً حتى تحرّرت من روابط الوجود قد أصبحت مشعلاً مرفوعاً على طريق الخلود..

« لقد كانت سفرتي الأولى إلى هونغ - كونغ ».

عندما بدأ ريوجي يتحدّث عن مهنته، أحس أن الصبية غدوا أكثر انتباهاً. فقصّ عليهم تجاربه خلال هذه الرحلة الأولى، إخفاقاته، أخطاءه، حنينه، كآبته. ثم تابع مع حكايات عن رحلاته حول العالم: عندما توقفوا في السويس، عند مدخل القناة، فسرقت لهم حبال، وفي الاسكندرية كان الحارس الذي يفهم اللغة اليابانية والذي كان يتفاهم مع التجار على المرفأ ليبيع لطاقم السفينة جميع أنواع حثالات البضائع (وامتنع ريوجي عن إعطاء التفاصيل عن هذه الأشياء، لأسباب تربوية) والمصاعب التي لا يتصوّرها عقل لملء المراكب بالفحم في « نيو كاسل » باستراليا بحيث يصلون في الوقت المناسب لأخذ البضائع من سدني، وهي مسافة تُقطع بوقت نوبة واحدة؛ وللالتقاء عند شاطىء أميركا الجنوبية بسفينة شحن تابعة « لليونايتد فروث » تعطّر الجو برائحة الفواكه الاستوائية التي كانت مملوءة بها.

ولاحظ ريوجي، وهو في منتصف قصته، أن القائد كان قد لبس، ذات لحظة، زوجاً من القفازات المطاطية. وقد شبك بعصبية أصابعه فبدا كما لو أنه يريد ان يلصق المطاط البارد ببشرته.

ولم يبد على ريوجي أنه كان قد لاحظه. نزوة تلميذ كان الصف يضجره، حركة بلا معنى.

وبالإضافة إلى ذلك كان ريوجي، فيما هو يتكلم، يستسلم لذكرياته؛ وحين أدار رأسه نظر إلى الخط الرقيق ذي الزرقة الكثيفة الذي كان البحر، وكان مركب شحن صغير في الأفق يسحب خلفه شريطاً من دخان أسود. كان بإمكانه أن يكون على ظهر هذا المركب. ورويداً رويداً بلغ الأمر بريوجي، فيما هو يتحدّث إلى الصبية، أن رأى نفسه كما كان نوبورو يتصوّره.

« كان بإمكاني أن أكون بحّاراً يمضي إلى الأبد ». كان قد تعب ومع ذلك فهو الآن يستيقظ بهدوء على ضخامة ما كان قد ترك.

إن أشواق الأمواج المظلمة وأنين المدّ المتطاول، والأمواج التي تتكسّر على صخور الشواطىء، إن مجداً مجهولاً يناديه بلا نهاية من عرض البحر المعتم، مجداً يفضي إلى الموت وإلى امرأة، مجداً كان ليقدّ له مصيراً خاصاً ونادراً. لقد كان وهو في العشرين من عمره مقتنعاً به اقتناعاً مهووساً: ففي أعماق ظلمة العالم كان هناك نقطة مضيئة معدّة له وحده وستقترب ذات يوم لتنيره هو وليس أحداً سواه.

كان المجد، في أحلامه، والموت والمرأة متعايشة ومتشابكة. ومع ذلك فإنه حين ربح امرأة ابتعد العنصران الآخران نحو عرض البحر وكفّا عن مناداته بأنّات الحيتان الأليمة. وأحسّ بأنّ الأشياء التي كان

قد لفظها كانت تلفظه الآن، لم يكن يستطيع أن يقول بأن البؤرة الذائبة التي كانت العالم كانت ملكه حتى ذلك الحين، ولكنه كان يشعر بأن شمس المناطق الاستوائية كانت قد التصقت بخاصرته تحت أشجار النخيل التي كانت أثيرة لديه إلى هذا الحد، وأن تلك الشمس كانتْ قد التهمته بأسنانها الحادّة.

والآن لم يكن باقياً إلا الرماد. كانت حياة هادئة جامدة قد بدأت، كانت ميتة خطرة قد مُنعت عنه، وكذلك المجد، بلا ريب، ومثله سُكْرُ عواطفه الْمُغني، والأحزان التي تثقب قلبك، والوداعات التي تحرّر وتنعش، ونداء « القضية الكبرى » وهي اسم آخر للشمس الاستوائية، ودموع النساء البطولية، والكآبة المعتمة التي لم تكن تني تعذّبه، والقوة العذبة القادرة التي كانت تدفعه نحو قمم النبل... كل هذا كان قد انتهى.

سأله من خلفه صوت القائد المرتفع الواضح.

ـ هل تريد بعض الشاي؟

ـ بكل رضىً.

هكذا أجاب ريوجي وهو لا يكاد يدير رأسه، وقد انتُزع من أفكاره.

كانت ذكرى الجزر التي زارها ترفّ في ذهنه: « مالاثيا » في جنوب المحيط الباسيفيكي، « نوفيل كاليدوني »، المستعمرة الفرنسية، جزر ماليزيا المجاورة، أرخبيل الانتيل السادر في الاسترخاء والكآبة، الطافح بالببغاوات والنسور الكبيرة، وشجر النخيل في كل مكان؟ نخيل ملكي، نخيل للخمر، وكمثل عاصفة تنقضّ هبّ الموت عليه

منبثقاً من قلب البحر الرائع. كان يرى في الحلم موتاً سيكون أبد الدهر خارج متناوله، موتاً مليئاً بالعظمة في أعين الناس جميعاً، بطولياً، لا يُقارن. وإذ ذاك لو أن العالم هيّأ موتاً مشعّاً على هذا النحو فلم يكن عجيباً أن يهلك العالم هو أيضاً من أجله.

أمواج، دافئة كالدم، داخل جزيرة مرجانية، الشمس الاستوائية التي تئنّ في السماء كنداء بوق برونزي... بحر بجميع الألوان.. أسماك قرش...

وأكثر من ذلك بقليل كان ريوجي ستنتابه الحسرات.

« خذ. هذا هو شايك ». قال نوبورو من الخلف وهو يلامس خدّ ريوجي بفنجان من البلاستيك أسمر غامق. وتناوله ريوجي، غائب الفكر. ولاحظ أن يد نوبورو كانت ترتعش رعشة خفيفة، من البرد على الأرجح.

وشرب الشاي دفعة واحدة وهو ما زال غارقاً في حلمه. وبعد أن شربه أحس له بمذاقٍ مرٍّ مرارة فظيعة. إن المجد مرّ، كما يعرف كل إنسان.





هذه الرواية . . .

نوبورو، صبيّ في الثالثة عشرة يفاجئ غراميات أمّه، وهي أرملة شابّة، مع ريوجي وهو ضابط في البحرية التجارية. كان نوبورو عضواً في شلّة صبيان يسعون إلى أن يكونوا قساة القلوب، وهم يتّخذون البحّار في بادئ الأمر بطلاً. ولكن حين يكتشفون أنه لم يكن إلا رجلاً طيّباً، ودوداً وشريفاً يقرّرون أن يتخلّصوا منه. وقد بدأوا بالتدرّب على خط لإنجاز العمل الفظيع الذي عزموا على تنفيذه.

وتعدّ هذه الرواية من أجمل أعمال ميشيما وأكثرها رهافة وشاعريّة.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت